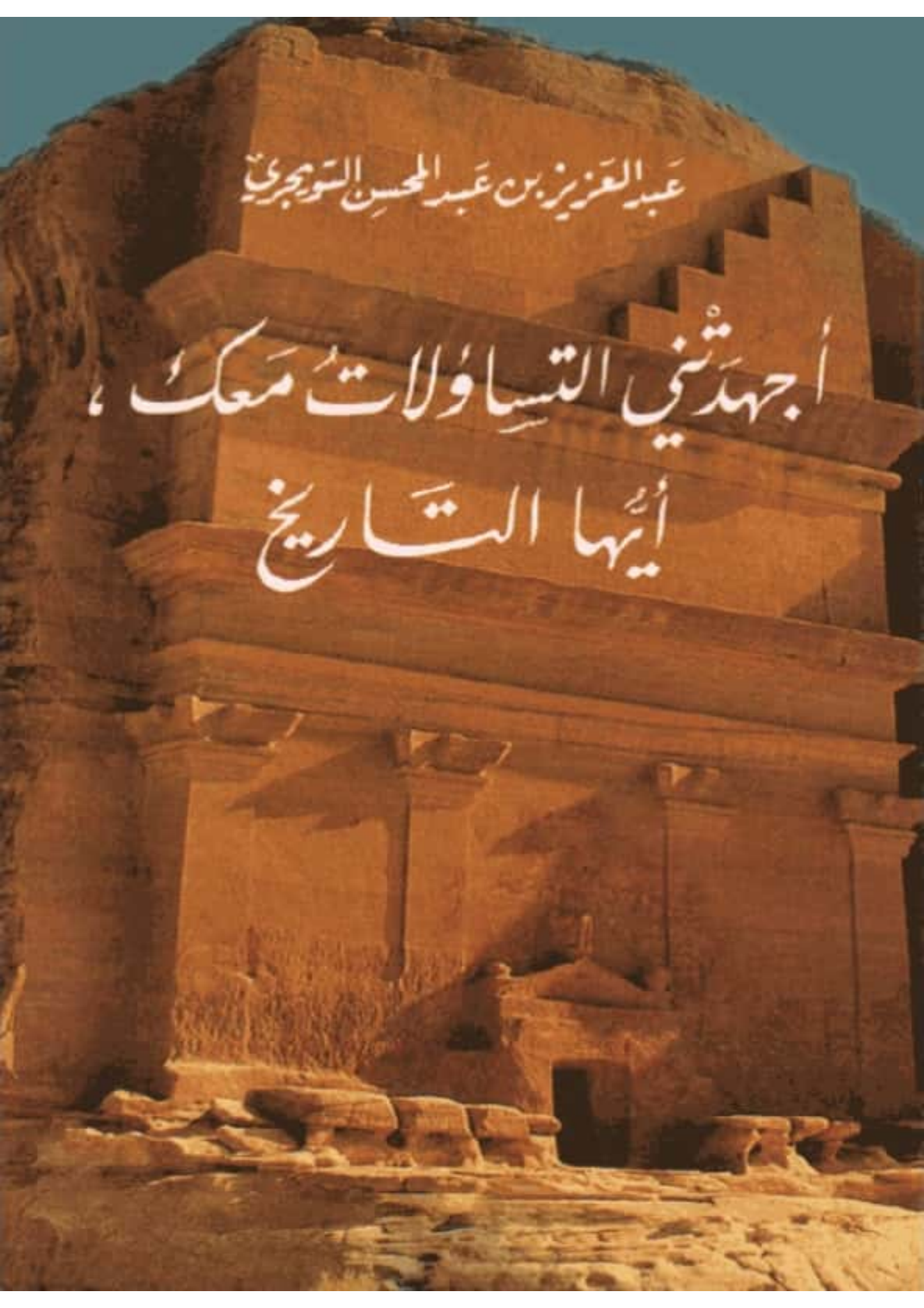

عَبد العَزيز بن عَبد المحسِن التويجري

أجهدتني التساؤلات معك، أيها التاريخ

أجهدتني التساؤلات معك، أيها التاريخ

هذا الكتاب مُجازٌ لمتعتك الشخصية فقط. لا يمكن إعادة بيعه أو إعطاؤه لأشخاصٍ آخرين. إذا كنت مهتمّاً بمشاركة هذا الكتاب مع شخصٍ آخر، فالرجاء شراء نسخة إضافيّة لكل شخص. وإذا كنتَ تقرأ هذا الكتاب ولم تشتره، أو إذا لم يُشترَ لاستخدامك الشخصي، فالرجاء شراء نسختك الخاصّة. شكراً لك لاحترامك عمل المؤلّف الشاق.

© عبد العزيز بن عبد المحسن التويجري، 2002،
2011
جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الورقية الأولى، 2002
الطبعة الإلكترونية، 2011

ISBN-978-614-425-187-4

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، بيروت. ص.ب.:
5342/113. الرمز البريدي: 6114 - 2033
هاتف: 866442 1 961، فاكس: 866443 1 961

e-mail: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني
www.daralsaqi.com

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها التاريخ الجليل، لا عتب عليك ولا مجادلة بغير الحُسنى. لن أحمّلك أخطاء الإنسان ولا ألومك عليها، لو فعلتُ ذلك لتناقضتُ مع نفسي ومع الاعتدال في مجادلة الحدث. فمن قراءاتي لما معك وما حمّلتك إياه الدهور السحيقة لم أقف منه موقفاً معادياً لأؤذيه. ما كان هذا هدفاً لي، هدفي أن أستجلي الحقيقة التي كثيراً ما كانت تحرسها أضلاع المجهول في إيوانَي كسرى وقيصر أو حتى في الشارع العام. وقبل أن أتجه هذا الاتجاه كثيراً ما ساءلت نفسي: من أنا؟ ما مؤهلاتي التي بها أُدخل نفسي في نفق تاريخي، الزمانُ والمكانُ والإنسانُ فيه رحلة جَمَلُها شيخنا الجليل: التاريخ؟

في ذاكرتي الآن، وأنا أكتب مثل هذه الخاطرات، تلك الرحلة التي أخذْتَني فيها معك قبل ستين عاماً، وفي أسفار مشرّقة بي ومغرّبة. أوقفتَني أمام إيوانَي كسرى وقيصر ثم أخذتَني إلى خرائب قرطبة والحمراء، وقلت لي: اعتبِر، ولا تسأمِ التساؤلات! وهكذا من الشرق إلى الغرب، طالت أسفاري معك حتى مللت الرحلة، وظهرت عليّ أعراض القلق والأوجاع النفسية من أثر ما شاهدته ورأيته وقصصتَه عليّ، من مصائب تمثلت لي فيها الأحداث في أبشع صورها وملاماتها للإنسان. تعاظمت

في نفسي قسوة الحياة على تلك المشاهد التي لو أطلنا الوقوف أمامها، وجادلناها جدلاً نبنيه على قوله تعالى: {وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل}، لاستغرقنا الزمن واستغرقنا تساؤلات في ماذا ولماذا حصل هذا كله، ولماذا تداعت العروش؟ كيف قامت وكيف سقطت؟ من الذي بنى ومن الذي هدم؟ من الذي تألم، ومن الذي جاع وظمئ؟ ومن الذي عدل أو ظلم في التاريخ الإنساني؟ ما هذا كله إلا ما سيتساءل عنه إنسان اليوم كلما رأى الأحداث والغِيَر تقيم بنياناً وتعلي شرفاته فترة من الزمن في حضارة هنا أو هناك، ثم يسرع إليها الفناء، فإذا الشرفات وإذا البنيان يتداعى منكّساً على أنفه، وإذا ما كان فيه من أحلام جميلة وجميلات صاروا إلى كوابيس وظلام دامس، محطمي الكبرياء بائسين يفزعون إلى كاتب التاريخ لعلّه بما يكتب لا يقسو على الماضي. فما كان الحاضر اليوم لولا هذا الماضي العظيم الذي فيه فِكْر المفكر وفيه الدِّين وفيه القيم وفيه النبي والرسول، وفيه التجربة الإنسانية التي أوصلت الإنسان إلى الفضاء. والماضي، الذي نخشى عليه من كبرياء العصر وغروره وجفاف معين المثل عنده والقيم التي أتى بها الرسل والمصلحون، عالم عليه ملامح الانفصال. فهو، وقد خرج من جاذبية الأرض إلى جاذبية الفضاء وراء النجوم وحطّ قدمه على سطح القمر ربما يقول: أنا كل شيء، لا أعترف بماضٍ ولا بحاضرٍ ولا مستقبل، إلا أنا.

فأنا الذي لي الحق أن أقول: أنا ابن العالم الجديد، وقد قالها. ربما يقول: كل عالَمٍ غير عالمَي خَلِق وبائس!!

وإذا كنتُ اليوم أحاول أن أتذكر ذلك اليوم البعيد الذي قال لي فيه صديقي: التاريخ في بيتنا، ألا تأتي معي لنقرأه ولو على ضوء خافت من الوعي، لا أدري، أيجوز لي، وأنا رجل عادي، أن أضع بصماتي شاهداً بها على واقع عشته وتجربة مررتُ بها وأصداء علقت بذهني من التاريخ علوق الصدى بجناح الجبل، وأن أطرح التساؤلات على ورقي؟ وهل إذا طرحتها سيكون لها صدى؟ أم أن الصدى يمكن أن تبتلعه أعماق الخوف في أرجوحة القلق والتصدع النفسي والروحي في عالم الهذيان؟ ما من شيء اليوم إلا هذى، مثلما أهذي هنا؟

وهل إذا تحاملتُ على أقدام ذاكرتي، وجئت أُسقط على هذه الأوراق من ذهني صوراً مراياها ليست من الخيال، بل جدل مرّ على مسامعي، وصور تشكلت في عينيّ، ودويّ تحدّر إليّ من أقصى السنين إلى أدناها في أوراق التاريخ، أكون شارياً وبائعاً وأميناً؟ لا أدري، فإذا ارتعش القلم في يدي وحار وتردد في السير على طريق وعرة وظلمة قاتمة، فلأن ملامات الأحداث البعيدة تخاف أن يلحق بها الخليفة الثاني، فهي مزوِّرة في أكثر الحالات للحقيقة ومضلِّلة عنها!!

ولا أدري وهموم الإنسان المشتركة في بيداء الزمن مع هذه الهموم، أصاروا إلى قرار زمني اسمه التاريخ؟ وأنه لا سبيل إلى اعتراضه ومُساءلته وتنظيف ساقيته

العذبة؟ فكثير مما فيه محتاج إلى مساءلته عن الركبان الذين أدلجوا في اليوم البعيد، وساروا في الفلاة، ثم تبددوا في كهوف الزمن، يكتبون التاريخ في الكهف الغامض الذي لا يُعرف مدخله من مخرجه، لكي تزورهم فيه الأجيال وتجادلهم وتأخذ عليهم العهد ألاّ يكونوا مطايا يركبها المنتصرون على جادة الزمن، يكذبون وينافقون ويزوِّرون الحقائق!!

فالتاريخ منه القدوة والعبرة والعدل. ومشكلتنا، نحن قراءه، هي مشكلتنا مع من يكتبونه في هذا العصر. وما يُكتب أكثره تحيطه الريب.

ولكي لا تختلط أوراقي، الجميلُ منها بالقبيح، لا أهمَش الجميل ولا كل ورقة تحمل الحقيقة وتقول الصدق، ولا تزيَف الفضيلة إلى رذيلة والرذيلة إلى فضيلة. فالتاريخ ما كان هدفه تضليل الإنسان. إنه لسان صدق يتهيَبه كل منحرف ويخشاه كل فاسق. هكذا رسالة التاريخ، فهو محكمة مشرَّعة الأبواب عبر الزمن، كل جيل من الأجيال يمر بهذه المحكمة يضيف إليها قراءات جديدة وعادلة بشهادته عليها، وهذا ما يجب أن يكون.

لا أدري لو أن أكثر ما يُقرأ أو يُسمع اليوم من أمجاد ومآثر عن هذا أو ذاك في هذا العصر، مرّ عليها زمن أو أزمان، أيُرى في «باقل» العصر سحبانَ وائل، وفي «مادر البخيل» حاتماً الطائي، وفي «أبي حية الجبان»

فارسَ عبلة، وفي أي فاسق التقيّ سعيد بن جبير أو الفضيل بن عياض؟؟

لا أريد أن أذهب بعيداً وراء ما أجهله فآثم. ولكني في هذه الخواطر أدعو إلى إبراز الوجه الجميل والعظيم لتاريخ أمتنا العربية والإسلامية، والخروج به إلى عالم العصر في الرجال العظام والعلماء الكبار والأدباء والشعراء والأتقياء، وتحليل ما في التاريخ من نكسات لدولتنا العربية الإسلامية العظيمة بعد أن انتقلت من المدينة المنوّرة. فالأخطاء التي تلاحقت عليها هي التي تراجعت بها وأرهقت عاتقها وعاتق كل مصلح عن حمل الهداية الإنسانية إلى كل البشر، وهي التي تركت أكثر ما لنا في التاريخ من آثار عظيمة في العالم خرائبَ ومآذنَ لا يُذكر فيها اسم الّله!!

لماذا لا يدخل عالِمُنا ومثقفُنا وأديبُنا معركةَ الصراع التاريخية، ويردّون تلك الفجائع إلى أسبابها ومسبّبيها وينفون منها ما لم يكن إنسانياً وأخلاقياً؟ ويقولون لنا من هم الذين فتحوا أبوابهم عبر التاريخ ونادوا على أقدار اللّه أن تعالَي إلينا على عَجَل، فقد هيأتْ لكِ أفعالُنا أسبابَ الفناء والتبدّد؟!!

إذا لم نقرأ التاريخ ونجادله بوعي وصدق وحُسن نيّة، نجادله، حكّاماً وسياسيين وحواشي ومذاهب مشبوهة ومعارك نزعات وصراعات، فقد تتضاعف على أمتنا المتاعب والمعاناة كما هو اليوم. فمحرق روما له وارث، وقاتل الخليفة الثاني له وارث، وكذا قاتلا الخليفة

الثالث والرابع لهما وارث، وقاتل الحسين له وارث، وخوارج النهروان لهم وارث، إلى آخر القصص الذي لا ينتهي عند جنكيز خان وهولاكو.

وفي ما بين عصر من يكتب التاريخ المعاصر من فوق صخور القمر، ومن كتبه من شقوق العزلة والبعد عن حضور الحدث والأحداث في عقله، مسافاتٌ بعيدة طوتها السرعةُ الضوئية في عصر العلم.

ولا أدري، أساءَلَ واحد منا ـ نحن العرب والمسلمين ـ أول إنسان نزل على سطح القمر وقال له: أقابَلَك هناك على الصخور هاجسٌ لعربيٍ أراد الرحيل إليك في اليوم البعيد؟؟ باشَرَ الرحلة ولكنه سقط، وبسقوطه لم يأخذ الفكرة عنه غير الأجنبي؟؟

إني خائف أن يكتب تاريخَنا المعاصر، من المحيط إلى الخليج، مزوِّرٌ ومنافقٌ، يكتبه من جيبه لا من طهارة ضميره، فيلمّع بعض المرايا لبعض العواصم العربية، في أيامنا هذه، فتضيع الحقيقة، وتضيع لضياعها القيم والمثل العليا، وبذلك يضيع كل شيء!!

1 ـ مثلما انكسر جناح الطير

أيجوز ـ أيها التاريخ ـ لصعلوك من أدعياء الفكر، أخذ التصعلُكَ مع الأوراق رحلة من رحلات الوهم ظناً منه أنه يفكر، أن يعترض طريقك التي تمشي عليها؟

أتساءل لا لأتراجع عنك وإن كنتَ مهيباً، ضخم الجثة، نهماً، كل مَنْ مررتَ عليه وقدم لك قِراه، وربما فضلات عقله، لم ترفضها معدتكَ، بل هضمتَ كل شيء، وإن كان تخريف المخرفين ودجل الدجّالين وكذب الكاذبين... ونفاق المنافقين ممن عليهم علامات استفهام كثيرة في أوراقك، في الأمس واليوم، من حنوا رقابهم تحت مرايا صدئة ونكرة مهما لمّعوها تبقى كذلك!

واليوم، وأنت تقف حائراً على أبواب عصر الفضاء، أترانا آمنين عليك مِنْ رَفْعِ يده إليك وقوله لك: قف لأتعرّف إليك وإلى ما معك من حاشية رديئة تضرب لك الطبول وتنافقك، وتزوّر الأبيض إلى أسود والأسود إلى أبيض في أكثر الحالات؟ أتحاشى أن أجرح كبرياءك وما كان نظيفاً في بدنك وما تفوح منه رائحة الرسالة الإنسانية، وهي رسالة كونية للعقل والروح والفكر قيادتها في قرآننا الكريم.

وأنتَ ما أنتَ؟؟ أنتَ جَمل حمول ربما اعترضك على الدرب الطويلة قاطع طريق وظالم، فأناخك بسياطه ثم اعتقلك ليضع على ظهرك بطولات زائفة نافقها المنافقون ولمّعوها على مراياهم في كل زمان ومكان.

فظللتَ ترقل مع الزمن في خطى لم ينخها جيل من الأجيال أمام محكمة عادلة لتقاضيَ ما معك وتضعَ عن ظهرك ما لم يكن إنسانياً وشرعياً. ثم ترسلك على الدرب الطويلة ليقرأك جيلنا ويتمثلك في عصر الزحام البشري وتَنافُس العلماء في رحلاتهم إلى الفضاء.

ويوم فكرتُ أن أستضيفك على أكرم ضيافة، وآخذك إلى أنظف حمام لتغتسل فيه من وعثاء السفر الطويل، ومن أنفاس غوغائية واقفة على الطرقات الزمنية تصفق للبلادة وللعشوائية وللحاشية الرديئة، ساءلتُ نفسي: أفي إمكاني أن أبرّ بك وبما معك من تراث عظيم؟؟ فجاء الجواب أن البرّ بك وبما معك من قيم ومُثُل وتراث هو ما أحاول ألاّ يجاورهم فيه فاسق ولا ظالم ولا منافق.

لا أتصور أن لكَ قدسية كقدسية ما أتى به الرسل والأنبياء، فنقف صامتين تحت محاريب بنتها لنا فلسفتك. فالدهور التي لوّنتك بأشكال مختلفة متهمة بأنها تعبث بنسبك إلى الأحداث أو نسبها منك. فعدوُك الزمني قد يكون متداخل الخُطى، حافرٌ يقع على حافر، إلى يومنا هذا، أما لماذا؟ فكلما لاحت لي من بعيد ملامحك وقدرتُ أنها تشكلت لي فيها صورتك ابتلعها الشك، وإن كان خيالي، وإن كانت حياتي وتربيتي محسوبة على الدهور البعيدة التي لا نعرف بُعدها، وربما تدور بنا في حلقةٍ مفرغة من التصورات عنك وعن علم

الوراثة فينكسر فينا الجناح، مثلما انكسر جناح الطير في هذا العصر!

ومرآة الماضي التي تعكس صورتك وتحاول أن تنافس مرآة العصر نقف حيارى أمامها، وهي تتزاحم عليها بالمناكب الدميماتُ والجميلات، تتصابى الجدّة مع حفيدتها، والجدّ مع صغيره، والدهر مرخٍ لكلِّ جمجمةٍ رسنَها. نمدّ أعناق وعينا لعلها تستشرف الطريق البعيدة فإذا أعناقنا تتقاصر أمام حكمة اللّه في عقولنا ونفوسنا.

وهنا لا أحقن قلمي من ماء كدر لأصبه مرارةً في حلقك غضباً عليك، فقد أوقف العصر رحى جدنا عمرو بن كلثوم التي أدارها في العصور السحيقة وعلّقها على رقبتك مع ما فيها من معلقات وأناشيد موت ودمار...

أخشى عليك من مؤرخي العصر وفلسفتهم وكبريائهم التي تجاوزوا بها التراب إلى الفضاء. فالأستار والأروقة مزقتها يد العصر، وحطّت فيها قلماً وقالت له: اكتب ما لم يكتبه كاتب قبلك. ولأن الماضي البعيد والقريب الذي معك، فيه الدّين والقيم، وفيه الأصالة، وفيه الكدح المضني، وفيه التراث الكريم، لا تفزع إذا اعترضك صعلوك من صعاليك العرب، أو مثقف من مثقفيه، أو مفكر من مفكريه، وقالوا لك: دعنا نجادلك وننظف بدنك، فإن فيك من الروائح ما يضايق رموزنا العظيمة ومُثُلنا العليا.

فما أكثر ما معك من تخريفات كلها سواقٍ صبت في نهرك وولّدت فيه التماسيح والديدان، وكدّرت مياهه. ما

من رديء معك إلا من هذه السواقي التي سقتك ثم علّتك. فمولود يولد على الفطرة نظيفة صحائفه، كل ما فيه فطري، إذا صرخ هدهدته أمه، وما بين الصراخ والسكوت يبدأ العد، وهكذا إلى أن يصل إليك في مذهب أو شعار من تقي أو شقي، تستقبل الحركة عاصفةً أو نسيم صبَا، سواء عندك الليل والنهار، من أراد أن يزورك في الظلام مكشوف العورة، متستراً بالظلمة، حتى لا يراه أحد، لم تتشاغل عنه ولم تغلق دونه نوافذ بيتك. وهنا نجد أن أكثر زوّارك هم زوّار ليل... وزائر الليل، لا زائرته، مع الأحلام الجميلة، هو الذي يعنينا، نحن من نحبك ونريد نظافة ثيابك لنباهي بك عصراً غالى بفكره وقدّر أنه أول كتاب في تاريخ البشرية، وما سواه لا شيء...

في الهواء الطلق تساءل واحد من الهازئين بك والساخرين منك قائلاً: ماذا عنده؟ ماذا معه؟ كلما سألناه أحالنا إلى أحجار الهرم، أو إلى أحجار سد مأرب وجرذانه التي دمرته، أو إلى خرائب قرطبة والحمراء، أو غيرها في آسيا وأفريقيا، وقال: هذا هو الزمن، وهذا هو تاريخ الإنسان وفعله ولا شيء غيره؟ فردّ عليه صاحبي: ربما يكون هذا في ذهنك المشوّش، أما من أذهلك صعوده إلى الفضاء أو نزوله إلى أعماق البحار واليابسة، فهو الإنسان الأول الذي تتعالى عليه، إنها تجاربه وخطؤه وصوابه، ونجاحه وفشله!!

وحتى لا أضيعَ في متاهاتك الزمنية وأخبارك التي قيل إن الذي أملاها هم الأقوياء، سترى هدفي فيما بين السطور نشطاً يذود عنك الخرافة والبلادة والتجاوزات التي يرفضها الفهم السليم والعقل الواعي بمحاولة مخلصة. فما خفَّ في يد الرياح الهوج غيرُ أوراق الخريف، ولا كنستها إلا لأن الحياة ودَعتها. وأنت لم تكن أوراق خريف، إذا هبث عليك رياح العصر لتكنسك أفسحنا لها الطريق، أبداً، لأنك الأصالة، ولأنك الأهل والوجود.

وهنا أترك مكاني مع هذه الخاطرة عائداً إلى أختها في يوم تختاره لي أحاسيسي ومشاعري، فتُجلسني معك صديقاً لا يقبل أن يصادق دون أن يتساءل ويلحّ في السؤال عمّن يكون هذا الصديق!!

2 ـ بماذا أتت خاطرة اليوم؟

لا أدري، ولكني سأسلم لها أوراقي لتملي، والخطام بيدي، لن أرخيه لها فقد تقول شططاً. ألقت عليّ سؤالاً مثيراً للجدل قائلة: أسيقان العصر راحت عنا بعيداً ولا أمل في اللحاق بها؟ أذهلني السؤال، فخرجت إلى الشارع العام أسائل المارة: أفيكم من يملك الجواب؟ وقف أمامي شيخ جليل القدر، ضخم الجثة، كل ما فيه يشير إلى أن رحلته مع العمر مثقِلة كاهلَه وجفونَه. سألته: من أنت؟ فقال: أنا التاريخ. قبَلث جبينه وطرحت عليه السؤال فقال: ما سيقان هذا العصر إلا سيقان أول إنسان خطا على هذا الكوكب. قلت له: إن العصر يغالي في كبريائه، يحاول أن ينكر عليك نسبك منه، فماذا تقول؟ فقال: قل عني: إلى من ينتسب هذا المغالي في قدره إذا لم أكن نسبه؟ إنه أنا الإنسان الأول، أخذَتْهُ إلى الفضاء حساباتي وتجربتي وفلسفتي. قل له: إن رحلته هذه استجابة لحكمة اللّه وإذنه بالرحلة. قل له: سترخي لك حكمةُ اللّه الرسنَ، ستتركك تلهث وراء كون اللّه البديع والواسع ويطول لهاثك، ثم في أدنى الطريق الكونية البعيدة ستسقط مدلياً لسانك عاجزاً، إذا لم ترَ اللّه في إبداعه وآياته الكبرى. لا أتمنى لك ذلك ولا أتفاءل به لك، فالانفصال بيني وبينك غير ممكن، بل مستحيل، هو عقد شرعي، الزواج فيه لا طلاق معه ولا افتراق مهما فسقت فلسفتك.

ففي اليوم الذي نجهله، ولا نعلم أبعاده، التقينا والشرعية والمأذون، أتفهم ذلك أيها العصر؟ قد لا تفهمه ولكني أؤمن به وأعلم أن قبر الحياة والإنسان والكون كله واحد، والتداعي آتٍ، فلا تستعجله!!

ألا ترى ـ أيها التاريخ ـ أني ابن من أبنائك البررة، أحضرتُ أوراقي للدفاع عنك، وعن الكريم الذي معك؟ ألا تتصور أيها التاريخ أن لي تصورات عن مكابدتك لحمل الفاسق والرديء والجائر والعابث من أجل أن تسلمه لأقلام شريفة لتحاسبه وتهينه، كلّ على قدر فسقه وجوره وجحوده ونكرانه لعظمة خالق الكون؟ إلى أين سيذهب ويفلت من العقاب؟ هذا في علم اللّه وغيبه. فإذا فتحتُ عليك نافذة صغيرة لترى من خلالها الحواشي الرديئة التي معك، وناديتُ عليها المخلصين لك ولأنفسهم من مثقفي العرب والمسلمين فلا يزعجك ذلك. نحن لا نقاضيك ولا نتهمك بأن أوراقك عميلة لطاغية أو مجرم، فأوراقي أوراق حميمة بك، أحاول ألاّ ترشح قطراتها بغير روائح الخزامى ونَفَل الروض وشجرة الرمث. فأغلب الخاطرات كتبتُها من داخل خيمتي واخترتُ للقائها بك أيام الربيع. لا أفتعل للأحداث صوراً من الخيال وأُلزم بها أوراقي، فتجربتي مع الأوراق أرتني ضعفي وعجزي عن السير بها إلى بيتِ صاحبه لم يكن إمّعة، ولم يهتف عقله وفكره لورقة أو أوراق ما عليها بيّنة من خُلُق.

لذا، لا أكتب وأوراقي مفتوحة اليد تستجدي رضى عمرو أو زيد بهتافاتهم وغوغائيتهم. ما أكتبه هو للإنسان الناقد البصير والأمين في نقده لأتعلم منه وأصحح وأبارك لأوراقي مثولها بين يديه.

ما أكثر ما أخذتني التساؤلات إلى داخل نفسي، وطوّفت بي بين حنايا الضلوع الكونية في ذاتي، أسائلها عن مصادر الضجر والقلق والسأم والفرح والربيع والجدب والنعاس وسهر الليل والجوع والظمأ، والحب والكره، ألهم قبائل في عالم الإنسان يتصارعون؟ كم فكرت وكم تساءلت وكم كتبت ثم مزقت ما أكتبه!! وإذا خرجت من داخل ذاتي إلى هذا الكون البديع وما فيه من كائنات وأقمار ونجوم وجدتُ كل شيء فرحاً وباسماً يتراءى لي أنهم عائلة ما عرفت ما نعرفه ونعانيه من أحزان وآلام وجهل!!

لا أعرف أين يجد الإنسان اليوم سكينته؟ أبقي لديه من أمل في اللقاء بها؟ فالأيام والليالي البعيدة فراشي فيها كثبان الرمال، وليلي فيها ليل النجوم ومسامرة الأماني والأحلام الجميلة. ولا أعرف ماذا معك ـ أيها التاريخ ـ عن أمسنا مع الخيام والرمال والأودية والكدح والضنى في الصحراء، أو في واحة الوادي ونخلاته الجميلات فارعات القوام؟ لا أدري ما منزلة مكارم الأخلاق عند أهلي وقومي العرب مما تكابد حمله من غثاء السيل؟ أخشى أن تتخطانا عيون العصر وتزدرينا، وبذلك تزدري الأصالة والقيم والمثل العليا. هذا هو

أمسنا، ويومنا هذا وغدنا... بماذا سندخل أوراقك؟ هل سترانا من هذا العصر؟ هل ستحسبنا عليه؟ فالعصر فاجأنا في غارة أشد من غارة الليالي والأيام وأخَذَنا إليه.

أرضنا الجميلة، جبلاً ووادياً ورمالاً وقفراً وذكريات مع ظباء الفلاة وبنات الحي، أغارت عليها علوم العصر واكتشافاته، فإذا الجبال والأودية والرمال والصخور يُنطقها العصر بلغة العلم، فتمشي من الأرض إلى الفضاء في أسراب من أطيار العقل والفكر سحباً، كل قطرة من قطرات النفط لها رقم في حساب العلم، ولها مكان تستقر فيه في مركبة فضاء أو في ذرّة من ذرات الفناء!!

ونحن نستقبل الأحداث نعلم منها ما نعلم، ونجهل ما نجهل!! ولا أدري متى تبني خيامك على شواطئ الخليج وتناديها: أن أملي عليّ قصصك وما مرّ بك من أحداث ومفاجآت؟ وعسى أن يكون استقبالك لها حاضراً معك فيه الماضي ليسمع قصص الأحداث من فم الرمال والمياه وموت الحياة في مياه الخليج!! والسؤال الذي يؤرق من ركب تيار الأحداث التاريخية حائر اليوم لا يدري إلى أين يتجه بمؤرخ العصر؟ أيذهب به إلى الغرب والشرق؟ أم إلى أمة العرب والمسلمين؟ أم يقف به على واديَي دجلة والفرات وكثير من الأودية العربية والإسلامية، ويُسائل النخلات: لماذا أنتن ظامئات وحزينات، ومياه النفط ودجلة والفرات وأنهار أخرى

مياهكن؟ قد لا تتحرك سعفةٌ من نخلة واحدة بالجواب خوفاً من قطع رقبتها ولسانها لو نطقت!!

ليس هذا مني زوبعة نفسية خفت بي على هذه الأوراق لسبب ذاتي، أبداً، ولكن الأحداث كبيرة ما عرفتها مياه الخليج ولا الرمال والأودية، ولا لها ذكرى في أوراقك مع أحداث بكر، أخذنا إليها الحظُّ العاثر في هذه المنطقة وأركبنا سفينتها رغماً عنّا، وقايةً لا هواية. ولكن سنموت وتموت من بعدنا أجيال، وبكاء الرمال والصحراء ومياه الخليج والنخلات والطير والأسماك يتردد صداه في أودية الإنسان وأذن التاريخ!!

لا أدري والساحة الواسعة في الأرض والفضاء والبحار هي المدخل الواسع لمؤرخ العصر والأحداث والمادة التاريخية التي لو حدّقث فيها السحب والكواكب وحرب النجوم بعين المؤرخ ومفكره لارتعشت الأقلام، وإن كانث مع أمهر الأيدي والعقول الحاسبة. ما نصيب أمتنا من ذلك؟ فتاريخ العصر لم يعد تاريخ القبيلة ولا القرى ولا الأمصار ولا الفرد أو العائلة، إنه تاريخ أحداثٍ لم يعد للأنا مكان الصدارة فيه. فتاريخ البشرية اليوم يلملمه العلم في الزمان والمكان والإنسان على بعضه بعضاً، ويفتح له سجلاً واحداً. فما بقيت قرية من القرى على هذا الكوكب تستطيع أن تقول: سأكتب تاريخي وفق مزاجي والأقلام المنافقة من حولي، أبداً. لنفهم ذلك، ولا نُغالط

في الحقائق!! فهذه أقدار اللّه مع الإنسان، في هذا العصر.

كثيراً ما تنصب لي الأماني والأحلام خيمة في فضاء النفس لتبعدني عن هموم الليل، والناس نيام. تحلم لي عابرات السبيل من الذكريات بمنازل جميلة كنتُ أنصب فيها خيمتي، وسوارح القبيلة من حولها تحلبها أيدي بنات العشيرة وأبناؤها. ما أكثر ما لذّ لي الحلم وإن كان من أحلام اليقظة!! لا أدري لو صحوتُ من هذه الأحلام وعادت إليّ حقيقة الأشياء، وذهبتُ إلى منازل الأحلام الجميلة، مضارب خيام العشيرة، ماذا سأرى؟ لا أعرف، ولكني سأصغي إلى منادٍ يناديني من قلب الرمال ومياه الخليج أن كل شيء تبدّل وتغيّر وصار إلى مسافرٍ مع المسافرين إلى الفضاء، فالآبار التي تسقي الإبل وسوارح العشيرة غارت، وحلّت محلها آبار تسقي قبائل الفكر الراحلات إلى الفضاء، هي اليوم تهذّب خشونة الطبيعة وتعبّد طرقها إلى البعيد. هي من شطآن الخليج ومن قلب الرمال تغازل النجوم وترسل مراكبها على جناحٍ أسرع من الضوء.

لا أحقن قلمي بالظنون دون يقين عن هواجس العصر وأهله، عن حرب الخليج وتداخلاتها في هذا العالم. لا أعرف شيئاً عنها، غير أن بندقية عاثرة الفكر انطلقت من أرض الرافدين فتردّد صداها في العالم كله، فأتى مهرولاً وراء الصوت لبيك لبيك!! وبقيت المسرحية التاريخية والممثلون لها والمخرجون والمصفقون ملثمة

وجوههم عني، لا أعرفهم، ولكن للتاريخ حساباته ورؤيته التي ينطلق منها إلى أوراقه لإخضاع الحقائق لها.

لا أستطيع أن أجادل الأحداث، فالجدل رهيب، والمجادلون بيني وبينهم مسافات شاسعة، يخفت صوتي وجدلي في أدنى الطريق دونها، وجدلهم تصغي له حتى النجوم! جادلوني في أرضي ومياهي ورمالي فولّد جدلهم أحداثاً وتبدلات وحتى حرب الخليج. ولا أقول، غير الحمد للّه والشكر له، والعزّة والأمان لأهلي وقومي وديني!!

3 ـ قرأتك ابنَ عشرين ثم ابنَ سبعين

يوم قامت الأحداث بغاراتها على ربّ القصر أو ربّ الخرافة في قلعة أَلَموت أو وكر رجل الرايخ أين كنتَ ـ أيها التاريخ ـ؟ أكنتَ أمامها أم خلفها؟ مَنْ الذي أملى على أوراقك الانتصار والهزيمة، وقال ما قاله؟؟

السؤال هنا قد لا يثير شيئاً له أهمية عند مَنْ يُكتبُ له فيقرأ، دون أن يتساءل ويُدخل الشك على نفسه حتى يتبين له اليقين. وسؤال عابر كهذا تظاهرت أمامه غيوم كثيفة حجبت النجوم والشموس والأقمار فخلعت فؤاده، كيف به أن يجد الاستقرار؟ فالبسطاء في التاريخ، ما مضى منه وما هو آت، قد لا يستطيعون الاعتراض على القوة فيسائلونها، وإن كان همساً بكيف وماذا؟ وما طال ناب ذئب الجبل وصار دموياً إلا حين خفق قلب القطيع بالرعب!!

وعلى مدرج الأحداث التي نحار فيها اليوم، ألا نثير السؤال وراء السؤال ونربك الطريق التي تتزاحم عليها الفهاهة والقطيع بكل سؤال يجذب إليه من أعماق النفس والوجدان والفكر ما كان بعيداً في أغوار المجهول عند الإنسان العربي: هل هذه المفاجآت العلمية شباب لعصور وأجيال تنتظر دورها مع الحياة؟؟ أم شيخوخة وهرم؟ اللّه أعلم... ربما أضعنا اللبن في الصيف، كما يقول المثل العربي، وأن القافلة العلمية راحت عنّا بعيداً، دفعت بها رياح التغيير في قوة رهيبة.

قد يقال: هذا الهذيان وهذه الحركة في الحلقة المفرغة شيخوخة أصابها الدُوَار فجاءت دوختها العقلية بهذا الشكل. والحلقات المفرغة من المعنى الكبير في تاريخ الإنسان ما أكثر مَنْ تحرَّك فيها ظنّاً منه أنه مالئُها، وهذا هو العناء والسقوط مِنْ حالق!

والخوف على الإنسان العربي اليوم وأخيه المسلم أن يضلّ الطريق ويبقى في الحلقة المفرغة، والعالم من حوله ينبت ريشه ويقوى جناحه. أليس لأمتنا العظيمة دور في التاريخ البعيد؟؟ إذا أصابنا القلق والسأم تخطيناهما ووقفنا على باب الصدّيق والفاروق؛ تلميذَي النبي العظيم؟

لا أتساءل تساؤلَ مرتاب، ففي يثرب وفي بطحاء مكة ما يرفع رؤوسنا ولا ينكسر لنا معه جناح، مهما أراد الأقوياء أن ينكسر. ولكن لا تجبر العظمَ الكسيرَ الأماني والأحلامُ.

لو لم تحمل لنا الرسالة الإنسانية فضائلها وأحكامها العادلة، فماذا عنا وعنك ـ أيها التاريخ ـ؟؟ هذا ما تأخذني إليه خواطري في عصر صار يقرأنا ويفتش عن عوراتنا وعن عيوبنا التي تحملها، وهو حين يقرأ لا يقف عند حرفية ما قرأ، ولكنه يعمّق الجرح ويضيف إلى السوءة سوءات ليفتننا، عرباً ومسلمين، ويحاول أن يبدّد ريحنا، وكثيراً ما اعتمدَ عليك!

لا أقول هذا، وأنا على جبين اليأس، أدنى هزة تُلقي بي من حالق، ولكني أستقبل الرياح كلما حملت إليّ

روائحَك وأثارت الأعاصير والهموم والأوجاع، وكلي أمل بأن الغيث لهذه الأمة المسلمة آت إن شاء اللّه، يوم يقال لنا: إن خطواتك ـ أيها التاريخ ـ على جادة الزمن مشت منذ عشرة آلاف سنة أو حتى مئة ألف سنة ثم نتساءل: أهذا كل شيء ولا شيء قبلك؟ تتجاوز بنا التساؤلات حدود الزمان والمكان الذي قدّره المؤرخ عنك أو باحث الآثار...

فأهرامات هذا الكون ومجرّاته وبُعده اللامحدود لا تقف بنا عند الظنون في تساؤلات بلهاء، ففي قرآننا الكريم ما لم يحمله كتابك، وما يُغني عن كل كتاب. وقد أخذ العلم يلامس بسلطان اللّه أقدام هذا الكون بشكل جعل كل التقديرات والتخمينات والظنون تتقاصر رقبتها دون رقبةٍ قيل لها: تفكري!! والحيرة معي الآن تتساءل: رقبة من هذه التي أطلت على البعيد؟ ولا أدري أأنت ستفسح الطريق لمتغيرات العصر الرهيبة؟ أم ستظل شيخاً مُقْعَداً ملتصقاً بسارية الزمن لا يريد أن يتزحزح عن مكانه قيد أنملة، ولا يرى الجديد في الحياة اليوم؟ وظني أنك ستترك مكانك، وربما يأتي مَنْ يُدخلك قفص الاتهام ليقاضي شيئاً مما معك ولا يظلمك.

لا أقول هذا وأبنيه على ما قيل عن فلسفة التاريخ وحتميته، كما يقول بذلك مَنْ تصور أنك الحتمية. أبداً، أنتَ لم تكن حتمية. الإنسان بوعيه وعقله وتجربته وحريته هو القابض على الحركة، وهو الذي شكّلها

ويشكّلها، لا أنت. لو كان للحتمية سلطان على الإنسان لتعطلت آدميته وضاعت حريته وتحول إلى رقيق بين يديك يسائلك عن حريته وكرامته عند اللّه...

وقراءتي عنك في أيامي البعيدة ما أكثر ما تبدلت، قرأتك وأنا ابن عشرين، ثم قرأتك وأنا ابن سبعين، وما بين العشرين والسبعين، حاورتني فيك الحياة، وحاورني فيك الإنسان، وحاورتني فيك التجربة والملاحظة، وقادتني من رقبتي وألبستني الرسن حادثةٌ هنا أو هناك حملتَها إليّ، كنتُ أراك فيها حمامةً دوح إلى أن التقيتُ وإياك وأحداث القرون السحيقة في بَيْتَي كسرى وقيصر، ورأيت ربّ البيت يملي عليك ما يشاء في جبرية لا مشيئة لكَ معها، وهنا بدأت أرتاب في أكثر ما معك، ما أكثر ما سلبتني وعيي وحريتي وتفكيري، ووجهتي وجهة خاطئة في مفهومي عن هذا أو ذاك. فأنت ضخم الجثة، لو تجمَّع أكثر من في الأرض ليحركوا سبابتك لعجزوا من ثقل هذه السبابة الزمنية، لذلك قد أتجاوزك في أكثر ما سيأتي مع هذه الخاطرة عنك.

والملاحظة في ما بين العشرين والسبعين تسربلث بها على ذهني صور أربكته وخلطت الأوراق الزمنية التي حملها كتابك، فإذا كل صورة من الصور أكثر ما فيها يرعف أنفها دماً قانياً، وإذا ارتاب فيها الذهن وسألها لماذا؟ قالت: أنا جريحة في آدميتي، مظلومة، لا

تصدقوا من زوّرني وقال عني ما قاله سيده الذي أملى عليه ما يشاء، لأنه المنتصر!!

والجرح العميق ليس الذي ينزف وتودّع الحياة صاحبَهُ، وتسحب عليه الرياح ذيلها، ولكن الجرح الذي لا تموت جنازته هو اللعب بعقول البسطاء والدجل عليهم بالكلمة البراقة التي ينجذبون إليها انجذاباً لا حرية لهم معها. فمن يقرأ أكثر ما معك في عصر أراب الإنسان في كل شيء، ماذا يرى؟ يرى جبالاً ضخمة من الرمال التي لا تستطيع العصور أن تحرك سبابتها لثقلها على عقولهم، وما كانت عاجزة عنه العصور البعيدة يقف اليوم أمام خصم عنيد لا يبني لعقله وفكره خيمة على الرمال ولكنه يبنيها على صخور العلم والمعرفة التي لا تنهار ولا تتناقض في مادتها مع سلطان اللّه الذي وهبه للإنسان وأذن له به في هذا العصر. نعم، بناها على صخور القمر!!

وهنا مربط الفرس لفارس منتظر أن تأتي به الأجيال على سرج من العلم والمعرفة والوعي لرسالة العلم المعاصر. فالإنسان العربي تكابد أجياله اليوم عسرَ الوعي وعسر الولادة الذهنية، لأن الواقفين على الطرقات تضايقهم خطى العلماء والمفكرين، كلما أرادوا السير في تساؤلاتهم عن هذا الكون ليرتادوها بإرادة اللّه وسلطانه. ورسالة العلم المعاصر لا تعني في فهمي لها غزو الفضاء وغزو الأرض، وغزو الآفات المرضية والاقتصادية والاجتماعية، ولكنها جميعاً في مفهومي

البسيط مكتشفات لخدمة الإنسان، تعظم اللّه وتعظ الإنسان.

ولأنني في هذه الخاطرة المخلصة لا أؤمن بكسر قدمك وبمن قال أو يقول لك: تخلّف وتراجع ولا تلحق بي في هذا العصر، بل أتصور أن أحوج العصور إليكَ هو هذا العصر وهكذا... ولكني ألفت نظرك إلى أن إنسان اليوم الذي ستقف أمامه لم يكن حدثه حدث الأمس ولا إنسانه إنسان الأمس... ولأني من جيل الأمس عشت في هذه الصحراء، وهي وقبّة السماء والنجوم في عشق ابن العشرين لابنة الحي، وما كان عشقاً وفرحاً بالأمس أخذه العصر اليوم إلى أعماق الانبهار والتساؤلات والحيرة. وهو ما سيضني قلم المؤرخ ويحني كبرياء التعالي والقوة. فإذا وقع التناقض بين الأمس والغد فمنذا يكون الحكَم بينهما؟ أيكون اليوم؟ هنا يتصدع السؤال على مجرات النفس السابحة في فضاء الذات دون أن يظهر للإنسان في أفق من آفاقها قمر يطل ومعه الخبر الذي يضيء الظلمة. فمسراك مُدلجاً على جادة الزمن تحتطب من الأودية البشرية كل غث وثمين، أخشى أن اعتراضه في عصرٍ اعترض السابحات في الفضاء قَدَرٌ ربما يدمي قدمك ويقول لها: قفي! فالغث الذي معك من خرافة أو مذاهب رديئة قيل عنها شرعية لا بد من أن تُحاكَم محاكمة عادلة، وتُعاد معلّقاً الحكم العادل على عنقها.

لا أقبض على ذيل جمل التاريخ، وهو يعدو في بيداء الزمن، فالقبض على خطامه غير القبض على ذيله، فقد تعلمنا من الجمل في الصحراء أن من تعلق بذيله رَمَحَهُ، فإذا هو طريح على التراب ليس بيده غير الفراغ. وهنا تنهض الصورة من مبركها تحاول أن تشد الرحال في فضاء النفس، لعلّ الجمل الهائج الذي صنع الزمن عذاره، تقبضُ عليه يد كاتب لا سيد له يأمره وينهاه غير شرف الكلمة والإيمان بها إيماناً لا يرمحه جمل تعلق بذيله ضعيف ما قاد قافلة من أمامها. وعمن سيكتب القلم في هذا العصر الذي أدار رحاه على جمجمة الخرافة، وشَذَّب كل نبتٍ رديء فيها وأحرقه على مشهد من مجرات هذا الكون وكواكبه، أتستطيع الخرافة والضحالة والبلادة أن تقاضيه؟ مَنْ نسأل؟ أنسأل ناثرات الودع مدلجات السرى وراء الخرافة؟ أنسأل البئر العميقة التي انحدر فيها فَهْمُ أكثر البشر؟

لا صراع بين السؤال والجواب في عقل من أدلجوا في سرى وراء اقتحام الخطر في عالم الفضاء والأرض والبحار، فلو وقع الصراع بين مؤخرة القافلة العلمية ورقبتها لتعطل الركب، ولكن الهدف قاد المغامرين إلى قدَرٍ لا يعلمه غير اللّه. فنحن البسطاء رعاع الوعي والذهن والخيال نشمّ رائحة خزامى العلم في القرن العشرين، ولا نستطيع أن نرحل إليها ونضرب خيامنا في ربيعها لتعظنا، لأن كل ما فينا معتقل بعقال الحيرة والذهول والجمود. لا أدري، أفي قافلة التاريخ قدرة

على الحركة والسير بالمؤرخ العظيم وراء من يرمون له الحدث العظيم وراء الحدث من كفّ عقولهم وأفكارهم ويقولون له: سجل في دفاترك كدحنا وزَوْرتنا البكر للمجرّة السابحة في الفضاء؟

نعم، ما يكشفه لنا العلم اليوم يضاعف إيماننا بالخالق، ويرينا شيئاً من آياته العظمى. ويوم يكون لك جناح وتقوى قوادمك ـ أيها التاريخ ـ يمكن لك أن تلحق بقافلة العلم وأسراره، فقد عطّل العصر أخفاف الجمل الذي يحملك. فما في هذا العالم اليوم غير الطيران والسير إلى الأمام في تزاوج بين المادة وذهن الإنسان وعقله، ولا أعيب على جملك، الذي حملك ومعك الحاشية التي أركبتها القوة، رحلاته على طريقٍ ما اعترضك عليها إنسان إلاّ قال لك خذني معك لعلّي أجد من يصفّق لي في عصر من العصور، وما أكثرهم في قافلتك!!

4 ـ يوم تقرئني الأحداث

ليست النظافة في ثياب تلبسها أجسام لم تغتسل من وعثاء السفر الطويل، ولكنها في نظافة الكلمة والفعل التي يُلبسها الحدثُ ورقَ المؤرخ... فتسامي الإنسان بالقلم عن حقنه من مستنقعات الذات مكّن الشرفاء من الرجال من أن يتجاوزوا الانحطاطَ الخلقي، في حرية لا تقدس غير مكارم الأخلاق والقيم، وأن يحملوا إلينا فضائل أمتنا الكبرى من أرض يثرب.

ولا أعرف، أيها التاريخ، وأنا معك الآن واقف على أرض صلبة بين ركبان الأمس الذين أرقلت مطاياهم في ثلاث قارات حاملة معها الهداية الإنسانية، وبين مطايا العصر التي ركبها العلم، ومن يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا، وراحوا يجوبون الفضاء ويحطون أقدامهم على صخور القمر، ماذا أكتب لك؟ فمنادٍ كريم يناديني من الأمام قائلاً لي: {يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه} وآخر يناديني من الخلف، من فوق مركبة الفضاء، التي لا ترتفعُ غير أشبار بالنسبة لكون اللّه الواسع، ثم تأخذها جاذبية التراب، فتعود عاجزة عن مواصلة الرحلة، يسائلني: أأنا كادح أم أنت، فلحقت بي خاطرة وألقت على تساؤلاتي الجواب: أنت كادح مفلس، ما لم تزَ اللّه بقلبك وروحك.

ماذا ترى، أيها التاريخ، لي ولك؟ أنبقى حيث نحن، وحيث مفاهيمنا التي أغلبها معك؟ أم نحاول أن نشد

الرحال لنلحق بالقافلة التي غادرت الأرض إلى الفضاء لنبني مساجدنا هناك، ونعلي مآذننا في فضاء اللّه الواسع، نكدح ونتفكر في خلقه العظيم؟

يوم تُقرئني الأحداث معركة صفين، أو معركة الجمل، ومعركة النهروان، أُصاب بالذهول ويتعطل فهمي وتتجمد الألفاظ في فم الخاطرات، فأهرع إلى التراجع عن كل سؤال أو جواب عن ساحة المعركة، فهي أحداث مؤلمة قيل لنا: لا يجوز الدنوُّ منها، فأهلها وأيامها وظروفها أمرُهم إلى اللّه، وأنا مع هذا القول.

لا قَدَح معي من وعيٍ فأسفحه على شجرتي اليابسة اليوم. وأخشى ما أخشاه أن تتداخل الطرق بتداخل المفاهيم والحسابات فيقع الخلل ويشمت بنا التاريخ المعاصر، لا قدَّر اللّه.

نوافذ العقل فتحت للإنسان المعاصر أبوابها وقالت له: أدلج ما شاء لك سلطان اللّه أن تدلج في هذا الفضاء!! ولقد أدلج وراح بعيداً، ولكن ماذا ربحت البشرية وماذا خسرت؟ ما ربحت غير المفزعات، وخسرت السكينة واستقرار البيت وأهله. خسرت التراحم بينها، وخسرت العدل. خسرت أشياء كثيرة خلقية وإنسانية ودينية وقيماً وتراثاً وعادات وتقاليد، اختلط الحابل بالنابل، فيا ليت سيقان العصر التي رحلت إلى الفضاء، كانت رحلتها داخل النفس!!

ليتني أستطيع أن أغرس في أوراقي أشجاراً من الأماني والأحلام لتبني حمائمُ الدوح فيها أعشاشها،

ولكني لا أعرف شيئاً اسمه غرس الأشجار، فأنا من عصرٍ يعلي شرفات الخطر، ويغالي فيها مصممها، وهكذا كل شرفة غالى فيها مصممها وظن أن البِلى لا يصيبها بالانهيار والتداعي، سقطت على هامته...

وهكذا الحياة، ما تبنيه الغرائز من الطين صباحاً تهدمه مساءً. فيوم وقفتُ تحت خرائب قرطبة والحمراء وساءلتها: لماذا صرتِ هكذا، قالت: لا تسلني وسائل أهلي العرب. ما أكثر من وقف في مكانك هذا وتساءل فقلتُ له: ألا تعتبر؟ ألا تستيقظ من سُباتك؟ لكن ما أقل من اعتبر!! وما أقلّ من وقف على الأطلال يسائلها، ويعود منها معتبراً!! لا يدري أن حوامل الأمس هنّ حوامل اليوم. فبطون الحاملات من الليالي والأيام في رحم الحياة والأزمنة لا ننثر لها الودع، فناثرات الودع عجائز خاب فألهن، ولكن نَخِيلُ سحب الأخطار مثلما يخيل البدوي منازل الغيث والربيع في الأرض، وإنْ سَبَقَنَا إنسانُ العصر إلى بارقٍ بَسَم له في الأفق البعيد من مقدمة السحب العلمية...

أمثلة بدوية أخذناها من تجربتنا مع الصحراء وسَيرِنا فيها مع سوارح الطير وسوارح النجوم. مراكبنا إلى الفضاء خيال غازل به قيس ليلى النجوم... ذاك يوم راح عنّا بعيداً، أخَذَنا عنه عصر لا نسب بيننا وبينه، فأنسابُنا في مكارم الأخلاق هي ما نحاول أن نعضّ عليها بالنواجذ.

لا ألوي بيد جهلي جدائل ذهنٍ تسربل شعره على ورقٍ حمل الجميل والجميلات من الأفكار، ولا أطاول مسارك الطويل، فعلى مدخل الجامعات في الأرض وفي الفضاء أوقِفِ الركب، أيها التاريخ، وفاخرِ الجامعات وأهل الأرض جميعاً بمن معك من عظماء الرجال، وقل لهم: شبر من أرض يثرب وبطحاء مكة هو الأرض كلها، وهو الدنيا، وإن ذهبتم إلى ما هو أبعد من القمر!!

بدوي من أبناء الصحراء، صار إلى ورقة صفراء تلعب بها الرياح، لا يريد أن يدخل أوراقك. ربّما يودعك غداً أو بعد غد في خاطرة من خواطر الصحراء، ولا أدري كيف ترى صحراء العرب؟ وماذا معك عنها؟ أسفي أن جيل اليوم لم يعد يسترجع في ذكرياته عنك أنك كنت في يوم من الأيام ضيفاً على بدوي في خيمته، وكيف كان، وكيف نحر لك راحلته التي تحمل أطفاله. وكيف عرفت البدوي حاتمَ الطائي، مَنْ منازله منازلي؟

بدوي اليوم هو بدوي الأمس لم يتغير في شيء، ولكنه في طريقه إلى التغيّر والتحول... فرسنُ هذه الحضارة أخاف أن يعسف كل خد يصعّره صاحبه عنها... كفانا الله شرها!!

5 ـ أتساءل لأغيظ خاملات عندي

لا أدري أيكون لهذا الحوار معك قارئ؟ أم ستعطب أخفافه فيبرك مهملاً على قارعة الطريق ـ أيها التاريخ ـ؟ فما أكثر الذين سالت دموعهم فبلّلت جيوبهم وحدهم ثم جفّت!! ولا أدري لو ساءلنا النجوم وكبد الأرض وقاع البحار: لماذا الإنسان وحده تغرقه دموعه في مياه الألم؟ لماذا الإنسان وحده وسط هذه العوالم الكبرى يُعاني الغربة داخل نفسه مع هذا الكون الغامض عليه؟ أتساءل لأُغيظ بتساؤلاتي هذه خاملات في نفسي طالما أنكرنَ عليّ مثل هذه التساؤلات.

ولا أدري، والذين رحلوا إلى الفضاء ونادوا على الخمول في عقل الإنسان وفكره: ما هذا الرقاد الطويل على حصير بالٍ من المفاهيم، ورسالة الإسلام تنادي بالتعقّل والتفكّر، وسلطان اللّه قد أذن بالرحيل إلى عالمه الواسع، أيمكنُ للخاملات من العقول أن تستجيب للنداء، وتقدر اللّه حقّ قدره؟

لا أستقبل اليأس على أوراقي، ولا آخذه إليها، وإن غالبتني عليه الجاهلات. ولا أعرفُ، والحال هكذا، أأدخل في نفق الظلام داخل نفسي، ومعي عصر ارتياد الفضاء، لأقول للبليدين والبليدات: هذا هو العصر أتعرفونه؟ أتدرون به؟ وتدركون أنه آخذ في تهميشكم وتكديسكم في زوايا الأرض بقايا بشرية مهملة؟ ولماذا

لا يكون ذلك كذلك؟ ماذا عندنا، نحن العرب والمسلمين، لنقول له: تراجع عنا وإلاّ!

ولا أعرف، وهو يُحرك أقدام عقله وفكره من وراء جاذبية الأرض ويُحاول أن يمد يد عقله إلى أقرب نجم أو أبعده، بإرادة اللّه، أسيتراجع عنا إذا أمرناه أن يتراجع؟ لا أدري، وليت الذين يشككون في حقائق العصر وعلومه يستنطقون الأحداث ويرخون الخِطام في اتجاه مسارات الفكر في هذا العصر ولا يشدون على عذار العقل حبل الخطام فيوجعه، فيبرك عاجزاً عن المسير.

لنحترمِ العلم ولْننافسِ العالِم، ولْنطوز فهمنا لما بين الأمس واليوم من تداعي العلم وتطوره بشكل يلقي تساؤلات كبرى على أهمية الإنسان، ولا نقلْ عما لا نعرفه: إنه لا شيء. فنحن اليوم عطاشٌ ركائبُنا ظمأى إلى مياه الغدير، والآخرون أسقوا ركائبهم، ركائب العلم، ثم عَلُّوها، فسارت على طرقات الفضاء خطوات بعيدة. وأخشى ما أخشاه اليوم أن لا شيء معنا غير الملل والضجر، أخاف ذلك على أهلي وقومي. فإسرائيل بين عواصمنا بسلاحها النووي، والذين أقاموها هنا ما أظلمهم وأظلم حساباتهم!! أعيش تصوراتٍ وآمالاً لم تستقر على مرايا الذهن والهواجس والظنون، أخشى أن تتكسر مراياها على جدران الجهل وتتبعثر شظايا، فتقتل الأمل!

ولا أدري، وأنا أكتب هذه الخاطرة مِنْ ظلام نفسي وجوعها إلى المعرفة، أتسفر لي منك ـ أيها التاريخ ـ بارقة أمل على جبين المستقبل فأحرق أوراقي وخيامي التي كابدتُ مِنْ داخلها هموم العصر وخوفي عليها منه؟؟

ما عرفتُ في أيامي الماضية لي بيتاً غير الخيمة أو الكوخ، ولا راحلة غير ظهر الجمل، ولا ساهرتني في فراشي خاطرة مِنْ خاطرات الهموم والمعاناة، ولا عرفتُ عالَماً لي غير عالَم الصحراء: ما كان شيء يؤرقني، رياحي ورياح أهلي رُخاء في هذه الصحراء. واليوم، وقد أنزلني العصر مِنْ فوق ظهر جملي وأحرق خيمتي، ماذا أحكي لك، أيها التاريخ؟ إنه لَشيء ما دخل أوراقك ولا عرفه عالمك الذي معك... وماذا لو حكيتُه أو حكاه لك غيري، ماذا سترى وتسمع؟ إنه أشبه ما يكون بالخيال أو أحلام اليقظة، قد لا تُصدّقه ولا تُدخله أوراقك، لأني أكتب لك هذه الخاطرة مِنَ الفضاء، حاولتُ أن أقول لك كيف كان هذا وما الذي حملني إليه؟ إلى أن خُيّل إليّ أن يدي قد تُلامس قبّة السماء. فالجَمل الذي أركبني إياه العصرُ سريع الخُطى يُقال: إن سرعته أسرع من الصوت، هو الآن يتململ في الفضاء بين الغيوم يُزحزحها عن طريقه بمناكبه الجبارة مسرعاً إلى أعلى، أقول: أعلى وأنا لا أعرف شيئاً ولا أدري ما الأعلى وما الأسفل؟؟ كل ما أعرفه أنني قطعة ألصقها العالِم بالمقعد وربطها بالحزام، وهذا هو كل شيء. قد

نمرّ بالحياة ونخرج منها دون أن ندري كيف ولماذا؟ نرى براعم العلم الغضّة اليوم ولّدها العلم ومهّدها بمهادٍ من أوراق هذا الكون وحساباته، قد حَبا ثم خَطا، وهو الآن طفل صغير يدرّبه العقلُ على السير بعيداً في فضاء اللّه الواسع وبسلطانه. وربما غداً أو بعد غدٍ يبدأ يخطّ في أوراق مهده مسارَ تاريخه.

ولا أدري، والرحلة ليست رحلتنا، أسيمهلنا هذا العصر أم سيغلق، بيننا وبينه بمغاليق مريبة، الطريقَ التي نمشي عليها إلى مصادر رزقنا وأمننا ورخائنا؟ أقول هذا، وأنا عائد من الرحلة الطويلة ومعي تساؤلات كثيرة، أتجاوزها الآن لأتنسّم روائح الخزامى ونسيم الصبا في حركة سعف نخلات الوادي التي تتمايل وتُلقي على روحي نسيماً من الأمل في رحلة روحية لم تكن من رحلات أكوام الحديد. فقد هبطت بي مركبة الفضاء[1] فتصاغرتْ أمام عيني وهانت كل فتن العصر وكبرياؤه وما رأيته في رحلتي الطويلة، أمام سعف هذه النخلات المليئة بالحيوية، النابضة بالحياة وأشجار الوادي الذي أعود إليه ولن أرحل عنه، وإن رحل كل سكان الأرض.

في آخر هذه الخاطرة أوقفتني الشيخوخة وقالت لي: إلى متى أنت والورق ومعاتبة الأيام؟ أخذتني أيامي الأولى في طريقي إليك مع الجدل، وقالت لي: اطوِ أوراقك وعش لذكرياتك وتأملاتك فينا لعلكَ تخرج بشيء تودّع به القلم، فالحياة هي أقوى مُعاتب وأعدل

في قوانينها وسننها من عتاب الأمزجة والأهواء ومغالاة المرء في نفسه!!

هكذا قالت لي الأيام... وأخطرتني...

1. يعني الطائرة.

6 ـ قال لي: اصرخ في الوادي المقفر أو على أوراقك!

أخشى فيما تكتبه لك خاطرة اليوم ـ أيها التاريخ ـ أن أضيع بين ثنايا جيوب أوراقك فتأكلني السباع قبل أن ألتقي وإياك، وهنا فجيعتي مع الأوراق. أخاف أن يشدّني عرق مدّه لي منذ مئات السنين أو آلافها مضلّل فيلزمني به، فأهواء النفس وميولها خلّفت لنا مفاهيم هي ما يعاني منها أكثر البشر اليوم.

لا أريد أن أقطع عرقاً أو أعراقاً غرسها في تربة الإنسان، في اليوم البعيد أو القريب، عابرُ سبيل على درب الحياة وقال: هذه شجرتي وهذه أعراقها، لا يؤذيها غير متعصّب ما عرف التسامحُ إلى نفسه سبيلاً.

أدخل مزرعتي الذاتية ولا أخرج منها إلى مزارع الآخرين لأحرث أرضهم، فأرضي أولَى بحرثي وبوضع البذور المثمرة فيها. ولأن أبي فلاح وجدّي كذلك وأنا ابنٌ لفلاح، أخذ يدربني كيف أحرث، وكيف أضع البذور، وكيف أسقيها وأقف على قدميّ ليلاً ونهاراً حارساً لها. أرقب الطير عن حبات السنابل التي هي كدحي وتعبي.

أوقفني صاحبي في طريقي إلى الماضي وقال لي: لماذا أنت هكذا تجترّ الماضي، كما يجترّ الجمل حشائش الصحراء؟ قلت له: يا صاحبي، أأنا أزرع في طريق أوراقي إليك ألغاماً من أهواء النفس وسوء القصد؟ أبداً، ففي فكرة اللقاء معك على ورقة من أوراق نفسي هبّت معها من الأفق البعيد على مزرعتي رياح عاتية خشيتُ

أن تقتلع الأشجار التي هي زرعي وزرع آبائي وأجدادي، فجئتُ إليك، أيها التاريخ، أتشمم فيك روائح الهداية الإنسانية، وأصغي إلى حركة رياحك هرباً من عصرٍ لا أعرفه ولا هو عرفني، جاء ومعه الخطام ليُلبسني إيّاه، وأنا عربي مسلم لا ألبس خطاماً من يد ظالم.

تتصارع في نفسي الآن أسئلةٌ حالمة أحلامَ اليقظة، ولا أدري أِلمثل هذه الأحلام مفسّر فأذهب إليه؟ ليقول لي من أنا، وماذا تعني الحياة لي، وأنا أشهد الإنسان الآخر يركب الفضاء بجناح عطّل جناح العقاب؟ لا أعرف أأنا مُعفى من المسؤولية عند اللّه من بقائي أتسكّع على التراب لا أنافس في كشف شيء من أسرار اللّه ومن الأسماء التي معي من اليوم البعيد؟ لماذا لم أكدح وأثابر في معمل الحياة مثلما كدح الآخرون؟ تساؤلاتٌ تتثاءب في نفسي ثم تموت على الشفاه!! آتي بها هنا لألوم وأعنّف وأبكي حظّنا العاثر!!

أمشي الآن في الطريق الصعبة داخل نفسي، والغموض الرهيب يحول بيني وبين هدفي من السير بحثاً عن الحقيقة، تلتهب مشاعري وتحترق أحاسيسي من عالم مجهول عندي أكابد طيشه وجنونه، ولا شيء يقول لي من هو غير الشك والحيرة والصَّغار!! أنا بدوي، والبدوي أصل العرب، لا يطفئ الحريق داخل نفسي عذل العاذلات والعاذلين وإن كن الأمهات والأخوات والأهل والجيران والمدارس والجامعات.

لي ذكريات بعيدة، لا أعرف هل غادرت الذاكرة ولم تُبقِ لي غير الدموع؟ ليتني أعرف ماذا حصل لهن بعدي! ليت العصا تحمل شيخوختي لأسافر داخل نفسي لعلّي أجد ضالتي فيها! مللتُ التطواف في عواصم العالم، أريد نفسي، أريد أن تفتح لي باباً أدخل منه ولا أخرج. ليت الأمنيات يستجبن لي يوم أناديهنّ: أن تعالين إليّ أطفئن الحريق وافرشن لي على حصباء الوادي النفسي فراشاً من سعف النخيل، لعلّ سكينتي تعود إليّ بعد أن هجرتني وتركتني والذكريات البعيدة على حصير من الألم. سواء عندي كنت ابن عشرين أو كنت ابن ثمانين، سواء عندي ربيع العمر أو خريفه، فقد جفت مياه غديرٍ أنا ظامئ إليها... عذراً لنفسٍ عققتُها طويلاً وربما جرحتُ فطرتها، وبعقوقي لها فقدتُ السكينة!!

في يوم بعيد لا أتذكّره، ولكنه معي يلازمني، زرت عيادة طبيب في مدرسته النفسية، وساءلته أعندك شيء تقوله لي؟ إني متعب. وبعد أن أخذ معي وأعطى، قال لي: أنت تحمل معك داخل نفسك براكين هائجة باللهب، نصيحتي لك، وأنت ابن الصحراء، أن تذهب إلى الوادي والقفر وتصرخ وتصرخ وتفضي بكل ما لديك إلى عالم الصمت أو تصرخ على أوراقك، إن كان لك أوراق. وهذا ما لازمت معه أوراقي، أكتب لنفسي من نفسي، وأحاول أن أتملّقها بمثل هذه الألفاظ العائمة على السطح عندي لعلّها تتهادن معها فيهدأ الاضطراب والقلق.

ليت أوراقك بيضاء، أيها التاريخ، لم تحاور الإنسان بالأحداث، وهو هارب عنك وعن التجربة والعبرة مما معك!

أكتب لك من مضارب خيامنا لأعتذر لك وللأطلال والرسوم التي تكابد حملها أوراقُك، أعتذر لك عن نفسي وعن الإنسان الذي ألّهثهُ عن أوراقك خضراء الدمن، لا أدري أأنا بهذا شيخ تصابى فعادت به الذكريات إلى منازلَ خَلَتْ من أهلها في قلب الصحراء؟ لا أعرف، أأنا إنسان شكلت صور الحياة في ذهنه وعقله وعاطفته ظواهر وخفيات لا أقول عنها غير ما قال كثيّر عزة:

قضى كلُّ ذي دَينٍ فوفَّى غريمَه
وعَزَّةُ ممطولٌ مُعنًى غَريمُها

هذه هي الأنثى عند كثيّر أو عند قيس وجميل، لا تحلو وتعبّر عن دورها في الحياة إلا بالغموض والمماطلة، فلولاها ما عرفنا كُثيّراً، ولولاها ولولا عسر قيادها لما تفجّر الحنين والبكاء في قلب العاشقين لها!!

ولا أدري أتراثنا في هذه الصحراء ومضارب خيامنا لها اليوم من يتساءل عنها؟ ويسائل الرمال والأودية والشعاب: أين منازل قيس وليلى لأزورها وأحفي قدم التساؤلات عن ليلى العامرية وقيس بن الملوّح؟ أتساءل والأديب من قومي العرب لم يقل لي شيئاً عنهما بسعة وتحليل نفسي وعاطفي يُرضيني، ولا أعرف أصارا إلى هَمَل في صحراء امرئ القيس؟ أسفي أنهما قابلاني في «مجنون إلسا» في خرائب قرطبة والحمراء، تطوف بين

الأطلال، تلقي أشعارها وتبكي على غرناطة وقرطبة والزهراء، وتسائل التاريخ: أمِنْ أمل أن تعود هذه الديار إلى أهلها العرب؟ فقد رأيت كثيراً وعزة في «مجنون إلسا»، على مرآة قصص الحب، صورة حية تحكي رحلة الإنسان العربي من قلب نجد إلى عالم الضباب فاخترقته إلى قلب شاعر فرنسا الكبير «أراغون» وقالت له: هذه قصتي خذها إلى أطلالٍ أضاعها أهلها مثلما أضاعوني، فأنا لم أكن من حكايات العجائز والتسليات، أنا معنى كبير، وقيمة من قيم الطهر، لماذا لا يشدّ إليّ الرحالَ أديبٌ أو مفكر من أهلي ليحملني إلى العالم؟!

حكى لي قصتها في عيون إلسا بين الأطلال الشاعر الفرنسي، فحكيتها لك، أيها التاريخ، وإن كنتَ شيخاً كبيراً مثلي، ما أغراك الهيامُ بها أن تقصَّها علينا أوجاعاً ودموعاً وحسرات وذهابَ عقل! إنها قصة عظيمة وتاريخية تائهة في قفار نجد... مع مثيلات لها من القيم الرفيعة!!

7 ـ هاجس أخافه

رسالة التاريخ إلى الإنسان ما وصلت إلينا وتناثرت أعضاؤها في زوايا الزمن والدهور السحيقة إلاّ لأخذ العبر منها. وها هي ذي معنا نحن هذا الجيل، جيل ارتياد الفضاء، وصلت إلينا من رحلتها الطويلة مرتاحة لم تجد من يكدّر صفوها ومزاجها، أو يوقفها ليسائلها عن دور وأدوار وأخبار مشتبَه فيها.

ولا أدري، وهي اليوم تقف على أبواب القرن الحادي والعشرين، هل بقي في هذا العالم المعاصر أحد غيرنا يقرأ تاريخاً فيه جنكيز خان وفيه هولاكو وفيه نيرون وفيه قاتلو الفاروق وعثمان وعلي والحسين وسعيد بن جبير؟

أتساءل، والدنيا من حولنا تطرح الأجوبة من فوق صخور القمر، ولا أعرف ماذا أقول، ورجل الفضاء أمامي يخرج من مركبته ليمشي في الفضاء، كما أمشي في سكك قريتي؟ ولا أدري في هذه الحال، أيها التاريخ، أأعترضُ هواجس نفسي وما تأتي به الخاطرات من الأوهام والظنون، أم أتركها سائرة مع الورق؟ وماذا لو تركتها؟ لا أدري، ولكني خائف عليها من عثرات الطريق. فخاطرات النفس قبائل قد لا أهتدي إلى مضاربها، لو رَحَلْتُ إليها جملي وحططتُ الرحال في بيت شيخ العشيرة وساءلني: مَنْ تكون؟ ما حاجتُك عندنا؟ أأقول له: قيل لي إنك نسابة العشيرة، أتيتُ إليك حاملاً معي

هموم قبائل ذاتية كثيراً ما يوقظني جائعها في هزيع الليل، ويقول لي: أتنام وقبائلك جائعة وعطشى، أضعتَها في متاهات الظنون والهواجس والكئيبات من التساؤلات؟ فهل لي يا نسابة العرب من أملٍ في أن أعودَ بشيءٍ تنسبني إليه، فإني ضجر وخائف من المجهول الذي أكابده داخل نفسي؟ فنعومةُ الألفاظ، إذا أرسلتُها إلى هذا المجهول لتحمل له عني حيرتي فيه، وتطلب منه مصالحتي، عادتْ إليّ كما ذهبت ليس معها غير الغموض ونعاس أجفان الراقدات عنده على مفاهيم بالية. ولا أعرف متى يستيقظن عندي أو عند غيري من الناس؟ فالذي معي أتعامل به مع الحياة والناس لم أستطع أن أقول هو كل شيء ولا شيء غيره، أبداً. معي ظاهرة أو ظواهر قليل منها ما أضفى على حياتي نصاعة الدور الإنساني الذي أسكنتهُ حكمةُ اللّه في قلب هذه العوالم، فأخذ يُصارعها صراعاً رهيباً، وهو اليوم في طريقه إلى التغلّب عليها. أليس من حقنا أن نتساءل ثم نتساءل: أهذا هو الإنسان وكفى؟

لا أستقبل مثل هذه التساؤلات والصراعات مع هذه الظواهر استقبال مستيقن بأن هذا هو الإنسان، أبداً. الإنسان هو الذي حتى الآن، وهو مأخوذ مع توجهاته إلى عالم الرغبات والتسلط والبعد في مسارات قد لا تزيدنا إلاّ بُعداً عن الخير فيه، وغموضاً على غموض. ليت هذه الرحلات الكونية رحلات إلى نفسه وإلى أبعاده والكشف لنا عن حكمة اللّه فيه!! لا تضن عليّ

صورة من صور الحقيقة في رسالتنا الإنسانية بلمحة من ملامح الطريق إليه، ولكن من يأخذ بيدنا إلى هذه الطريق؟ إنه عالِم منتظر، عارف بآيات اللّه وفضائه الواسع؟ لماذا لا نخلّف عالَم الفضاء المادي وراءنا برحلاتٍ إلى عالَم الإنسان وفضائه؟ لتشهد الإنسانيةُ كشفاً روحياً وخُلقياً يضع عن كاهل الإنسان أسفاره مع الشقاء والحروب والدمار الجسدي والروحي والخلقي؟!!

لا أعرف، أيها التاريخ، كيف لي مع الهاذرات من بنات الحي عندي؟ يوم أجلس لأكتب إليك يتراكضن إلى ورقي هائمات بزيارة الورق هيام قيس بليلى!! ولا أدري، وسلطاني عليهن أوهنته الشيخوخة، أهُنَّ مللن البقاء معي فأردنَ النشوز إلى الورق خوفاً من أن آخذهنّ معي إلى المدفن؟ قد يكون ذلك، ولكنَّ لي عليهن احتجاجاً، وفيثُ لهن زمناً طويلاً، أكابدُ حملهنّ وأتستر على ضجرهنّ وربما سفههنّ، فلماذا هذا التراكض كلما أدنيثُ ورقي؟؟

هذه أوراقي تعلّلني وأعلّلها بتسليات آتيات إليها من عالَمٍ تركتُه ورائي فتذكرته يوم ضاق شبر عن مسير، يوم صارت العصا ثالثة الأثافي! ما أكثر من ساءلني: لماذا لم تكتب في أيام شبابك؟ لماذا أتت كتابتك متأخرة؟ أسئلة لم تضايقني ولم يعرق لها جبيني، بل فتحتُ لها قلبي وأثنيتُ عليها، وإن ظنّ قائلها أنها تحرجني.

ماذا أكتب وأنا ابن عشرين أو ثلاثين؟ لا مدرسة لي غير الحياة، بقيتُ تلميذاً لها إلى أن قدّرتْ أنها قد تسحب مني ما أعطتني إياه وعلّمتنيه. فالشيخوخة والهرم لا يُبقيان عند الإنسان ذاكرة عامرة بشيء. وهكذا فتحتْ أوراقي ونواديث على إبلي وأغنامي ورعاتها أن ادخلوا أوراقي وضعوا عليها هويتي، وإن كانت هوية «باقل» في قومه العرب!! ولا أظنّ أنّي مُطالَب من أحد بشهادة تجيز لي إفراغ ما أكسبتنيه الأيام، فهي ما تقلقني دائماً إلى أن أذهب بها في خاطرة أو هاجس، خامل أو نشط، إلى الشارع العام. فما أردتُ أن أودّع الحياة دون أن أترك لأولادي كلمة وداع يرون فيها كيف سارت بي الحياة على جَمل، أو على قدم حافية أو على مركبة فضاء!! وهكذا أرتنا الأيام والليالي ما يضع على حياتنا ومسلكنا كثيراً من علامات الاستفهام والتساؤلات.

8 ـ أخاف من «باقل» العصر!

ما أكرم الصحراء!! وما أبلغ ما تمليه علينا من دروس! فقد أوقفتني في يوم من الأيام أمام قُبَرة[2] صغيرة وقالت لي: تأمل حبّ هذه للحياة. تأمل، سبحان من {أعطى كلَّ شيء خلقه ثم هدى} . انظر إليها وهي تراوغ فم البندقية، ويد الرامي على الزناد تلاحقها، تراوغ بقانون فطرتها رامياً دموياً هدفه قتل الحياة حتى في القبّرة!

ولا أدري ـ أيها التاريخ ـ ودموية اليوم تقتل الحياة في كل شيء، كيف تدخل أوراقك وعلى أية صورة من الصور؟ ومَنْ يا ترى سيحملها إليك؟ أهو كاتبُ اليوم أم كاتب الأمس؟ لا أعرف، ولكني أخاف من «باقل» العصر أن يكتب لك... أأعلّقُ جرس الإنذار في رقبة عمّنا «باقل»؟ أخاف عليه من حضارة العصر ومن مدنيّته. أخاف عليه ممن يكتب التاريخ من الفضاء، أخاف أن يقول: هذا هو العربي وأخوه المسلم!! أخاف عليه أشياء كثيرة!!

لا أدري، ونبضات قلبي تدق أجراس الإنذار داخل نفسي، أأنا قد أجهدت هذا القلب العاشق لليلى العرب؟ فأستريح من كثرة التطواف في أرضها من المحيط إلى الخليج... وأطوي أشواقي إليها وأُودِعها أضلاعي لعلها تأخذها معها إلى المدفن؟ لا أريد أن أذهب إليه دونها... فهي ابنة العرب، عشقها قيس أيامَ صباها، فجُنَّ بها

وذهب عقله... وتساؤلي عن قيس وليلى في أودية نجد هو تساؤل الدهور السحيقة: كيف رأت هذا الرمز الذي جُنَّ بليلى العرب في أرض العرب!!؟ وخاصة في قول قيس:

لا تقلْ دارَهَا بشرقيِّ نجدِ
كلّ نجدٍ للعامريّةِ دارُ

ولأن الوادي الذي التقيا على غديره هو وادينا اليوم، أول وادٍ ضربتُ فيه خيمتي وطوّفتُ فيه مع الذكريات البعيدة، أستدعيها بمشاعر الحب وأركبها أجنحةَ الخيال واحدةً واحدة، وقفت أمامي ليلى، فسألتها عن قيس فقالت: ماذا تعرف عنه؟ قلت لها: أعرفه، إنه المجنون بك، فبكت بكاءً مُراً ثم انصرفت عني، فناديتها: هل من لقاء غداً في هذا المكان؟ هزّت لي رأسها أن نعم. وفي الغد وقفتْ أمامي وقالت: أنا حزينة وذارفة الدمع على هذا التراب منذ مئات السنين. سألتها لماذا تبكين؟ وأنت الفتاة الوحيدة التي ذهب عقل الرجل من أجلها، وإلى الآن لم تعرف البشرية مجنوناً غيره... فنظرت إليّ في حياء وخفر وقالت: نحن ليس لنا ولد ولا حفيد، لو كان كذلك لما جُنَّ قيس. سألتُها: هل هذا منه ومنك عزوف عن بيت المأذون؟ غضبت وقالت: أتُهمةٌ لعربية وعربي وعذري وعذرية؟ أتسخر مني ومن قيس ومن المسلك الذي أخذناه اختياراً؟

عاتبَتْني عتاباً مريراً وقالت: قطع جهلُ العشيرة حبل الوصل بيني وبينه، وهو ما أعانيه الآن. قلت لها: وأنتِ

لماذا لم تصابي بالجنون؟ لماذا تتنكرين لحبّ قيس؟ فزعت وقالت: ماذا تقول؟ قلت لها: أنتِ وصلتِ «بلامك باءْ»، بنوا لكِ خيمة على جناح الوادي ونادوا زوجكِ: هذه عروسك وهذه خيمتك، وقيس لا أحد يعرف عنه أكثر من أنه جُنّ وهام في قفار الصحراء يُسائل النجوم والناس أين ليلى؟ تطرده قبيلة إلى أخرى. بكى وفاءَ العشيرة للقلوب، مات حزيناً ذاهبَ العقل!!

سكتت ليلى وانصرفت، كما خيّل إليّ، على قلب حزين ودمعٍ سقى واديها. عجزتْ أن تقول لي: إنها ظُلمتْ من الأب والأخ وسيقت كالنعجة إلى خيمةٍ لا تريدها وإلى زوجٍ زوّجَتْهُ منها نياقُ أبيه وجِماله!!

لا أدري لماذا أوقفتني الذكريات عن قيس وليلى وقالت لي: خذنا إلى أوراقك وأرسلنا إلى عالم خرج على مذهبنا، المذهب العذري، وقل له عني: لا يفهم العذرية أنها صيام بلا فطر. أبداً، إنها صيام وفطر على الشرعية!!

ولا أعرف لو حلمتْ قفارُ الصحراء وأوديتُها ونادتني أن تعال إليّ وفسِّرْ أحلامي في عصر ارتياد الفضاء ماذا تُراني فاعلاً؟ أستوحش من الطريق التي تقف عليها ملايين السنين أو بلايينها، أستوحش منها ومن أحلامها، ولو عُرضت هذه الأحلام على ابن الهيثم والرازي والبيروني والكندي وعباس بن فرناس [3] وغيرهم من علماء العرب أيستوحشون منها؟ لا أتصور ذلك، فهم من فتحوا للرحلة الكونية في الأرض وفي الفضاء باباً من

الوعي واسعاً وصاروا يُجَذوِلون حساباتهم، حسابات الرحلة العقلية المضنية بحكمة اللّه وندائه للعقل، إلاّ أن مفاهيم عصرهم عاقتهم عن ذلك. واليوم، والعَرض جاء متأخراً وعلى جاهلٍ ما أكثر ما ضاع في سكك قريته، كيف به مع أحلام ليست من أحلامه؟ فأحلامه من وجبات يومه وليلته، وهكذا الحياة لا يستطيع حالم في المشرق وآخر في المغرب في هذا العصر أن يقولا لسلطان اللّه: الأحلام قسمة بيننا، للغرب أحلامه وللشرق أحلامه، فقد حلم الشرق في ابن الهيثم وإخوانه ولكنه لم يجد من يستمع إليه، وهو يُحاول أن يفسر الحلم، فأسرع إليه الغرب وقال: ها أنذا آتٍ أستقبل أحلامك، وقد فعل، ولحق بما في باطن الأرض والمياه والبحار ثم الفضاء. ولا أدري لو أحلتْ تفسير هذه الأحلام التي طلبت مني الصحراء تفسيرها على جامعاتنا من المحيط إلى الخليج، كيف هم مع تفسير مثل هذه الأحلام؟ عذراً جامعاتنا، ما أحَلْتُ هذه الأحلام على الكندي وإخوانه إلاّ لخوفي من أن أشقّ عليكن!!

هذه لم تعد أحلاماً غامضة علينا، أيها التاريخ. هي اليوم خليط من الأنهار والمياه المالحة والعذبة والدولار. ولا أدري وأنا ممن يمشي على الرصيف العام، كيف يفكر رجل القرار في الوطن العربي والإسلامي، وهو يرى سلطان اللّه يكشف له عن أحداث عظيمة كانت نائمة تحت قدمه وقدم دابته ومضارب خيامه؟ لا ألقي هذا التساؤل وحدي، ولكن الأزمنة والأجيال الآتية ستلقيه

وتقصّ أثر الجواب الهارب من الخوف عن مجابهة الحقيقة في الوطن العربي!!

لا أدري لو كنتُ، أيها التاريخ، من الطفيليين عليك بأوراقي التي تُثيرها في ذهني رياح العصر، ماذا سأكتب؟ وماذا ستمليه عليّ الأحداث؟ كيف أستقبلها ولا أزوِّرها؟ فأنا رجل غير محايد بعواطفي، وهذا مصدر الصراعات عندي، ولكن ربما تستحي الشيخوخة عندي وتخشى عاقبة تزوير الحقائق وهي مقبلة على المدفن، يسوقها تعاقب الليل والنهار إليه!! فهل من أملٍ في أن تلد الأحداث ويلد العلم في دارنا العربية مولوداً لا تمهده جاهلة البيت أو جاهله، فيرفس بقدم ذهنه وعقله نائماتٍ في البيت العربي والإسلامي على أحلام أثقلتها المعدة فجاءت كوابيس؟

أمنيات لشيخ أكل الدهر قدم عقله، وأحفاها سيرُه وسط الضباب والهموم، وما عانى هذه الهموم إلاّ حين أنزلته الظروف والمفاجآت من فوق ظهر جمله وأحرقت خيمته. لو بقي لي جَملي ما حفيت قدمي ولا أكلتها سباع القلق والضجر والتساؤلات!!

2. القُبَرة: طائر صغير ضعيف، أصغر من العصفور وأكثر ضموراً.

3. عباس بن فرناس (274هـ = 887م): مخترع أندلسي من أهل قرطبة، عاش في عصر الخليفة عبد الرحمن الثاني. كان فيلسوفاً شاعراً، له علم بالفلك، وهو أول من استنبط صناعة الزجاج من الحجارة، وصنع «الميقاتة» لمعرفة الأوقات. مثّل في بيته السماء بنجومها وغيومها وبروقها ورعودها. وحاول الطيران، فكسا نفسه بالريش ومدّ له جناحين طار بهما في الجو مسافة بعيدة ثم سقط فتأذى في ظهره لأنه لم يعمل له ذنباً، لأن الطائر إنما يقع

على ذنبه. فهو أول طيار اخترق الجو (عن الأعلام للزركلي، مج 3، ص: 264).

كثيراً ما يتردد في أوراقي هذا الاسم، ولعلّي مأخوذ به لأنه أول رائد عربي فكّر في الطيران، وكذلك هو أول رائد في العالم.

9 ـ ركبت الجبالُ والصخورُ مراكبَ الفضاء

نصارع في آفاقنا عوالم لا ندريها. ساءَلْنا المفكر والعالِم والفيلسوف عنها فأعيا عليهم الجواب. ليت قوانينها كقوانين هذه الظواهر الكونية فنستريح من عناء الاضطراب والاغتراب!!

لا أدري كيف لي مع نفسي ومعك أيها التاريخ؟ تتململ الصور في ذهني فيغشاها الضباب فتنمحي العلامات بيني وبين مرآتي الخاصة، أقف أمامها لأسائلها فلا أجد غير وجه عابس اختفت الابتسامة عنه، ولا أعرف أوادينا الكبير هجرته السحبُ وساقتها الرياح إلى وادٍ غير وادينا، نحن العرب؟؟ كم ليلة أدلجتُ فيها السُرى وراء نفسي ومعي القلق، أبحث له عن مكان يستريح فيه لعلّ قمر السماء يتبدى في أفقي لأرى على ضوئه الطريق التي أمشي عليها في أفق النفس!! ولكن كلما لاحت لي بارقةٌ من أمل تلفّعت بالغموض نفسي، فشقّت عليّ العودةُ من سُراي وراء الساريات في غسق الليل من النجوم في ذاتي، أحاول أن أتعرَّف إليها لعلها تضيء لي الطريق إلى نفسي لأرى شيئاً من ظواهر هذه الحياة التي لم أقرأ شيئاً عنها في أوراقك، أيها التاريخ...

فإذا ارتعش القلم في يدي وحار وتردَّد في السير على طريق وعرة وظلمة قاتمة، فلأن ملامات الأحداث

البعيدة تطارده وتخيفه من اللحاق بها، فهي مزوِّرة في أكثر الحالات للحقيقة ومضلّلة عنها.

يغطني الآن في ترابية الذات عتاب نفسي: لماذا ذهبَ الإنسان عنّا بعيداً وراء المُدلجات في هذا الكون ولم يكن سُراه إلى نفسه؟ عتابٌ أضنى قلبي وغرس في كبدي مديته، وكلّما عدتُ إلى ذاتي لعلّي أجد عندها خبراً عن ضائعٍ لي، لا أجد غير تربة جافّة ما اخضرّ فيها عود واحد من ثقل الطين. ولا أدري، أأهرب عن العاتبات والعاتبين عندي وأتجاوز لهب الحريق النفسي؟ وآخذ لي مساراً غير هذا المسار المضني؟

تساؤلاتٌ يطرحها مسنٌّ ماشٍ على عَجَل لزيارة التراب، فوّت عليه الجهلُ أن يقرأ في كتاب هذا الكون ما يثير في نفسه ثاوياتِ من الهزال تجاوزها الربيع، فإذا هي على موعدٍ والسارحات من القطيع في فلاةٍ من الهموم والمعاناة... ويا ليت السارحات لا يرين سوارح عقول تصافح اليومَ يدُها يدَ الفضاء وتنزل ضيوفاً عليه!! ليتها سوارح عربية، ويدٌ عربية إسلامية!!

نعم أيها التاريخ: لا تظنَّ أن آفاق الإنسان كآفاق هذا الكون، أبداً. فآفاق الإنسان هي التي تطارد اليوم ما أذن اللّه به لها من سلطان على كثير مما كان غامضاً في هذا الكون العظيم. ألا يغيظنا، أيها التاريخ، ألا يُبكينا دماً ويزعزع استقرارنا، رؤية هذه المفاجآت العلمية عند من قال عنهم القرآن الكريم {يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا، وهم عن الآخرة هم غافلون}؟ وقرآننا الكريم بين

أيدينا يناديا نداءات متتالية: أن تفكَّروا، أن اعقِلوا، أن انظروا، أن سيروا، فلا نعي رسالتنا العظيمة التي أكرمنا اللّه بها، نحن المسلمين!! كيف لم تتحرك أقدام عقولنا إلى البعيد؟! كيف لم نفكر ولم ندرك ماذا في الإنسان من أسرار لها سلطان بإذن اللّه على هذا الكون الذي دُعينا إلى أن نبصره بالكدح لنلاقي ربنا، وعرفُنا الوجداني والعقلي يتصبب من شدّة الكدح؟ أي كدح كدحناه؟ يا لهول الفاجعة!!

تتراءى لي صورة هذا الإنسان الذي ذهب بعيداً إلى الفضاء أنها عائدة غداً أو بعدَ غد، إلى التراب من شدّة الإعياء، قائلة لنا: ماذا معكم؟ فنقول: أمرنا وأمركم إلى اللّه!! معنا الأمل والرجاء باللّه؟

لا أطرح الظنون وراء قافلة الفضاء دون تحفّظ، أطرح تصوراتي الخاصة على أوراقي عنه ولا أعطيه اليقين، ولا أركّب هذه التصورات ألفاظاً من التعبير الهشّ فيتبدّد وتتكسر أجنحته. أخاف عليها، وإن كانت أجنحة فرخ قطاة، لم تتعلم الطيران حتى الآن. أسرح بأغنام ذهني في فلاتي الخاصة، وكثير من الأغنام عجاف وقليل منها سمان. ولعلّ أغنامي محسوبة على العجاف. فالذئاب من البشر لم تستهدف غير الأنعام الضعيفة في التاريخ لتأكلها قبل أن ينبت لها قرن واحد من الوعي، ولا أدري أليالي اليوم هي ليالي الأمس؟ وهل الزمان واحد؟ فقد قال الشاعر القديم:

والليالي مِنَ الزمانِ حُبالى

لا أعرف، ولكن حوامل اليوم غير حوامل الأمس، لتُعلّق الصورة على رقبة الزمن ثم نعود إليها لنسائلها عن الجواب.

فحزمة من الضوء العقلي والوجداني عسى أن يفيض بها عقل إنسان ملّ الظلمة فتضيء بيوت الأهل والجيران من المحيط إلى الخليج. فالعصر عَضرُ الخَفَقات الذهنية وعَضرُ أدق الجزيئات الحسابية. وصوت الماضي السحيق يوم يتردد صداه في عقل الإنسان وذهنه اليوم، أيمكن لهذا العصر أن يستقبله كما تستقبله جبال اليمامة، ثم تنام عليه في قلب الصخور؟ لا أتصور ذلك أبداً... فالجبل اليوم في الإنسان يستقبل الصدى ثم يرده إلى مصدره في حوار عقلي وذهني يحرره من أسرار يحاورها العلم اليوم ويستنطق الدفين فيها. فقد ركبت الجبال والصخور مراكب الفضاء تحاول أن تطل برقبتها على الكواكب البعيدة وتستطلع أخبارها. أخشى عليك، أيها التاريخ، من أن يرفع العصر سبابته في وجهك متسائلاً: من أنت؟ ماذا معك؟

ليتني أستطيع أن ألامس أذنك لأهمس فيها بأن العصر خطر عليك وعلينا!! ولكن رقبتك الطويلة طول الزمن لا يصل إليها صوتُ قصير. ومع هذا سأبقى أثير من ضباب ذهني على هذه الأوراق قتاماً في وجهك لعلك تستجيب لصرخات مكارم الأخلاق التي معك

تناديك: إني لا أطيق أن يكون لي جار في أوراقك من الطغاة الدجالين والمضلِّلين!!

فعلى طريق الهداية الإنسانية سِز ولا تستوحش، أيها التاريخ، من مُحاور ومُجادل لك وعنك. نعم، لا أتجه إليك وجهةً تزعجك، ولكني لا أريد أن يعترضك منافق يصوغ نفاقه من جيبه المملوء حقداً على كل فضيلة وفاضل... ويمشي في ركابك. فـ «باقل» العرب اليوم، أخشى أن يكون هو المؤرِّخ، أو هو الذي يملي التاريخ على المتسوّلين ليلمّعوه ويجمّلوه ويقولوا عنه: إنه سحبان وائل... وما أكثر ما تناثرت التساؤلات من حوله في الوطن العربي!!

10 ـ لا يبرك السؤال على ركبتيه عاجزاً

قال شاعر المعزَّة:

نَظَزنا بأمرِ الحاضرين فَرَابَنَا

فكيفَ بأمرِ الغابرين نُصَدِّقُ؟

لا تتصور ـ أيها التاريخ ـ أني إنسانٌ يعكّر المياه، فمنذ كنتَ وكانت أوراقك، وأنت هدف للعقل والتفكير السليم. فطينة البنيان التي قامت عليها أكثر الجدر التاريخية ما أشرقت فيها الروح ولا المعنى الكريم للأمانة، فالطين في الإنسان الرديء هش سريع التداعي. والرمز هنا لم يكن وقحاً وقاحة الإنسان الذي يمشي على التراب طينةً عفّنث فتدلث شرفاتُ وعيه تدلّي أذنيه المعلّقتين على صدغيه تمر عليهما الأحداث فلا تستقبلان فضيلة ولا عبرة أو موعظة، تروح من حوله وتعود قوافل الأحداث والصور، باسمةً أو عابسةً، دون أن يعقل واحدة منهن على مدخل أذنيه لينافس بها الركبان المدلجين ليلاً ونهاراً على مطايا الذهن. فالبليد يبقى بليداً، وإن صعد منبرَ الخطابة فلن يكون سحبان وائل!

لا أهرش بقلمي جلداً تقرّح بالأمراض المزمنة، فالميت، كما قال أبو الطيب، لا يؤلمه الجرح. والتصورات في عقل الإنسان وذهنه ليس لها بارق في أفق من آفاق هذا الكون فنرصده ونخيله ونسألُ عنهُ: أممطر هو أم خُلَّب؟ وهذا ما ألقى في درب الإنسان

الطويلة وبُعدها اللامحدود أعسرَ التساؤلات وأثقلَها أجوبةً.

فالذي يهبط على القلم من ألفاظ ملت المُقام في سمائها الخاصة، أيستطيع الإنسان أن يكسر جناحها الغضّ لتسقط بين يديه جريحة لا تقوى على الحركة؟ والجريح أُنجهز عليه ونغتاله؟ أم نفسح له الطريق إلى الورق ليأتي إليه من يداويه؟ فلولا الطرق التي عبَدها ذهن الإنسان وعقله وتفكيره على دروب الحياة، أيمكن لنا اليوم، نحن أبناء هذا العصر، أن نسلك طرقاً جديدة وبكراً في الفضاء؟ لا أتصور ذلك. فإذا تداعت الألفاظ وحنت إلى صدر الورق متجاوزة بذلك هوسَ الألفاظ الفاسقة إلى الاعتدال، ألا نحاول أن تكون ريّاً لأشجارنا الذاتية؟ والمحاولة فيما بيننا وبين الحياة ـ نحن البشر ـ مَنْ الذي انتصر فيها على الآخر؟ مَنْ يستطيع أن يدلي بالجواب؟ أهي إرادة الحياة في البذرة الصغيرة؟ أم إرادة الفناء التي تستقبل الآتي ثم تذهب به على عجل إلى حيث لا أحد استطاع أن يمتنع عليها؟

وحتى لا نتجاوز على حكمة اللّه فيما نجهله إلى ما نخرص له ونلفّق من أفكارنا الكانسة في جماجمنا مفاهيمَ خاطئة، لنتواضع ولا نفلسف الحياة فلسفة ما قبضت عليها تجربة ثم حكتها لنا في كتابها الذي لم يزوّره الخيال أو فساد الطبع. والتجربة لا تكون إلاّ بالممارسة، وفي حدود المساحة التي تحركت فيها هذه التجربة والمثابرة. والذين يسرحون بمواشيهم من

الرعاة في أودية الصحراء ويرتادون لها الخصب ويحمونها من الذئاب دون أن يكون لهم فلسفة، لا أدري أهم ومن يسرحون بالقطيع من البشر متساوون في السلوك؟ أبداً...

لا يبرك السؤال هنا على ركبتيه عاجزاً عن النهوض، فأكثر الرعاة في هذه الحالة مَنْ لم يكن لهم قلم ولا فلسفة هم الذين أعطوا الحياة وأكرموها بفطرتهم السليمة، وهناك آخرون أهانوها عبر التاريخ، فعثروا حتى تكسرت جماجمهم وعظامهم على صخرة الوادي التاريخي!!

فإنسان يخبط خبط عشواء في مراغة ذهنه في عصر أفسحت فيه الطيور الكاسرة لطيور الذهن وعقبانه الطريقَ إلى الفضاء، لينكسر قلمه المنافق وتنكسر جمجمته ويُمَزَّق ورقُه، وإن لمَع مرآته!! لا يستطيع إنسان أن يلوي يداً أمينة وغير خائنة لرسالة القلم، فاليد الخائنة سهل على يد الوعي التاريخي أن تقطعها وتتركها مُشهِرةً عارها على الطريق الزمنية!!

لا أتصور أنك فعل ماض وشيء انتهى ـ أيها التاريخ ـ بل ستظل ترافق الحياة والإنسان ما داما سائرين على الدرب، لكنّ دورك، في يومنا هذا وفي غدنا وما بعده، دور ما سجعث على أغصانه حمامةُ الدوح، ولا جلستَ في بيتك والأخبار تمشي إليك شهوراً أو سنوات قبل أن تصل إليك. فالدور له قلم العصر وله أوراقه، وله وعيه وحسّه الذي يشم رائحة الحدث ويسمع صداه من آلاف

الأميال في لحظة واحدة. والأحداث فعل تشترك فيه أعداد من المتناقضات والصور. وهنا تتعاظم مسؤوليتُك أمام الحقيقة والواقع. فالإنسان، وهو مصدر الأحداث والمتغيرات والرعب في هذا العصر، في الأرض وفي الفضاء وفي أعماق البحار، كيف لك وتحليل نفسيته وعقله وسلوكه؟ هل ستُدخله العيادات النفسية؟ وهل إذا دخلها تستطيع أن تقول اهتديتُ إليه وعرفت مساره في الغابة النفسية التي لا حدود لها ولا علامات عليها؟ لا يقوم التساؤل، أيها التاريخ، على أرض صلبة، فتطمئن إليه الحياة القلقة اليوم. فميزان الرعب في أيدي الذئاب يتأرجح بين ذئب وآخر في هذا العالم... والذئاب الكبار هم اليوم يرفعون العواء فتتردد لصداه جَنَبات هذا الكوكب فتفزع إلى القيم والمُثُل العليا، ولكنهم يطاردونها حتى لا تستقر، لأن باستقرارها يفقدون أدوارهم التي منحتهم إياها القوة الكريهة.

لا أدري، والضياع في متاهات الجهل عندي يربك قلمي كلما اتجهت به بارقة صيف، لا بارقة ربيع، إلى أين أنا ذاهب معك، أيها التاريخ؟ والتساؤل هو المتكأ الذي أتكئ عليه كلما أصابني الدُوار. فإذا عضني الجهل بنابه، أأطوي أوراقي وأفترق وإياك من غير أن أضع بصماتي عليها؟ لا لأعلمك كيف تتعامل في دورك الجديد مع العصر الجديد، ولكني، وقد فتحتُ أوراقي على ميعاد معك، أرجو ألا يكون ميعادَ عرقوب!!

أخشى أن ينحسر لثام الكلمة عن بشاعةٍ تنبح جراؤها الفضيلة. فطالما نبحث كثيراً مما معك، ولا لومَ عليك، فكم حملتَ من جنائز عظيمة وكريهة، فالجنازة الكريمة والعظيمة، روائحُها في أوراقك روائح ربيع، والأخرى هي التي زكمت أنف الفضيلة وعربدت بالهوس والجنون في كل العصور، وهي معنا اليوم في جَنَبات هذه الأرض تخطّ الآلام، ولا أدري أهي في منتهى الطريق التي مشت عليها؟ وأن عقل الإنسان ووعيه سيقولان لها: قفي وعودي من حيث أتيت!! فهذا العصر لم يتركني رقيقاً مستعبَداً لكِ في مذهب أو فكرٍ شاذ؟!!

لا أحمل على ذمتي أكثرَ مما أقرأتني إياه ـ أيها التاريخ ـ وحملتَه إليّ. فعلى ذمتك وذمة من حمّلك ذلك أضع هنا أسفي الشديد على مَنْ ضاع وراء الدجل والخرافة وبهذه السهولة!

لعلَّ يمينَ أمانة المؤرخ تمسح عن جبينكَ عرق الكدح الزمني البعيد الذي به أثقلث كاهلَك عقولٌ أمرضتها الأهواء والغرائز، فحيحُها كفحيح الحيّات. فأقلام العصر الناقدة لا تعني إجازَتها إجازةً مطلقة لا قيود عليها، فبقدر ما فيها من إيجابيات، على سلبياتها تحفُّظات تفوق في مساوئها أبشع مما معك من مساوئ!!

11 ـ أرهقني هذا الشاب

لا أدري لو أن النجوم والكواكب والمجرّات وأسرار اللّه في هذا الكون أصابها الأسى والحزن، وكتبث لك ـ أيها التاريخ ـ رسائل تعاتبك فيها على هجرانك لها، وهي تكابد ألم هذا الهجران، أليس هذا منها ملامات لعقل الإنسان المسلم وفكره؟ أليس هذا منها تساؤلات عمّا معك؟ وهل أنت معلّم مشى على الدرب الطويلة يعظ الإنسان بمواعظ الأحداث والعبر؟ أم أنك شيء آخر رَحلَتْهُ البشرية وحطّت على ظهره كل ما هبّ ودب؟

لا أعرف، وأنت في مسارك الطويل تتسكع فوق التراب، أدوزُك يُورّث هذا ميراثَ ذاك، وإن كان الميراث غير شرعي؟؟ وإن كان الوريث نيرون مُحرق روما أو نيرون اليوم، كيف يكون الجواب؟

لا أعرف لو أن الفضاء وأسراره التي أذن اللّه للإنسان باكتشافها، ساءلوك ماذا ستكتب عنا؟ وهل في عرب اليوم ومسلميهم من لديه فقه علمي عن الكون وأسراره التي أخذ العلم يكتشفها؟ لا أدري ماذا ستقول؟ أتقف مذهولاً وحائراً فتعجز عن الحركة والخطو؟ أم أنك ستخلع نعليك وتغسل قدميك من وعثاء السفر الطويل؟ ثم تفتح كتاب العصر وتقرأه في الأرض وفي الفضاء وفي قرآننا العزيز؟ ثم تقدّم أعذارك لكل اللائمين واللائمات والعاتبين والعاتبات عليك وعلينا؟ وهذا ما

أتصور أنها ستجادلك من أجله حساباتُ العصر وعلومه واكتشافاته!!

ما أبعد ما بيني وبينك من مسافات!! أنت آتٍ من بعيد، مُثقَلاً بالهموم وبما عليك من أحمال وأفعال. قابلتُك وأنا لا أعي شيئاً ولا أفهم ما التاريخ وما فيه، ظننتُك يومها شيخاً أضناه السفر البعيد وأضنته الغربة، فأخذتُك إلى بيت أهلي لأستضيفك وأستطلع أخبارك. فما كان في البيت يومها غير قارئ واحد. كنتُ أميّاً أطرب للخرافة وأطرب حتى لحريق روما، ما كان لديّ وعي، كل شيء عندي نائم، فقرأ لي قارئ البيت شيئاً مما معك، فقدّرت أنك الدنيا وأن العالم كله قد انطوى تحت جناحك. سألني قارئ البيت: كيف وجدتَ هذا الشيخ الجليل؟ ومن الذي جمع بينك وبينه؟ فقلت: غريب أتى إلى وادينا عابرَ سبيل. أعاد السؤال: أتدري إلى أين رحل؟ قلت: لا أعلم، ولماذا تسألني عن غريب لا تعرفه ولا يعرفك؟ قال لي: أتدري أن هذا الشيخ الجليل والذي أبقاه عندك عابر السبيل، هو حامل التاريخ؟ قلت له: ماذا عندنا لنقدمه له؟ فقد يكون جائعاً إلى أخبارنا... فقال لي قارئ بيتنا يومها: أما سمعت قول الشاعر:

إذا عرفَ الإنسانُ أحوالَ مَنْ مضى

توهَّمتَه قد عاش من أول الدهر

فقلت له: ألا تراني شاباً صغيراً لا أقرأ ولا أكتب، فقريتنا ليس فيها مدارس تُقرئنا التاريخ وتعرّفنا به وبالقبائل التي معه؟ فأخذني قارئ بيتنا إلى زاوية من

زوايا البيت وأسلمني لوحاً من الخشب وبدأ يعلّمني حروف الهجاء. وفي فترة زمنية صرت أقرأ ولا أفهم أكثر ما أقرأه، لكن الفضول لازمني فلازمت ضيفنا التاريخ.

في يوم من الأيام سألتهُ تصوراتٌ أخذت تستيقظ عندي شيئاً فشيئاً قائلة له: أأنت كل شيء؟ فقال: ما الشيء الذي تسألينني عنه؟ عجزت تصوراتي يومها أن تعرف الشيء ونقيضه، فابتلعث تساؤلاتي التصورات عندي ثم عادت إلى مرقدها. بقيتُ ثقيلَ الجفون، شديدَ النعاس في أوليات أيامي. وإذا حاول موقظ أن يوقظني من منامي تثاقلت اليقظة عندي، والدنيا من حولي تسير على عجل. وفي لحظة من لحظات الشروق النفسي استيقظتُ من منامي فإذا شاب مليء بالحيوية جالس يستقبل على أوراقه بفكره وعقله ما تُمليه عليه الحياة والعصر الذي يعيشه. سألته: من تكون؟ قال: أنا العصر. قلت: وماذا تكتب في أوراقك؟ قال: أكتُب التاريخ. قلت له: لا تُتعب نفسك، التاريخ في بيتنا!! ضحك وقال: أي تاريخ في بيتكم يا رجل؟ قلت له: تاريخ العالم منذ كان للإنسان قدم على هذه الأرض. ضاعف ضحكاته وقال لي: إني أكتب تاريخ النجوم والكواكب وكل الأرضين في هذا الكون الواسع. إني أكتب شيئاً عن هذا الكون البديع. قلت: والتاريخ الذي في بيتنا؟ سألني ماذا تعلمتَ منه؟ قلت: تعلمتُ مما فيه من متناقضات بين الخير والشر بقدر ثقافتي البسيطة.

أردف سؤاله بسؤال أرهق تفكيري وعقلي، قال لي: أأنت متديّن؟ أأنت مسلم؟ قلت: نعم. قال لي: كيف تكون متديّناً وأنت تحمل الكره والبغضاء، وتحب وتوالي هذا وتكره ذاك وفق هواك وتعصبك؟ قلت هذا ما علق بذهني من مواريث الأجيال!! أعاد السؤال: ما نصيبك من فهم الدّين؟ قلت له: أوحّد اللّه وأصلّي وأحجّ وأزكّي محافظاً على أركان الإسلام. قال هذا شيء جيد، ولكن هل تتصور أن هذا هو كل شيء في الإسلام العظيم؟ قلت له: لا تُسرفْ في تساؤلاتك، أنا رجل بسيط. قال لي: بقي سؤال واحد: لو أن الإسلام وقف بالمسلمين عند أركان الإسلام الخمسة وعند العبادات، أتراه مشى يحمل الهداية الإنسانية لكل البشر، آمراً بالمعروف وناهياً عن المنكر في ثلاث قارات؟ أبداً. لتعلمْ أن له رسالة إنسانية، ليس له خيمة ينصبها في قلب الصحراء ويجلس فيها، ومن حولِهِ شيوخ العشيرة، إنه رسالة كونية، إنه رسالة علمية من المهد إلى اللّحد، إنه الرسالة التي تتجلى فيها روح الإسلام وعظمته وفقهه إلى أن تفنى الحياة!!

أرهقَني هذا الشاب، ورجَّ كلَّ ساكن عندي، ودخل بي عالَماً لا أعرفه ولا أدريه، ولم أجد في أوراق التاريخ الذي في بيتنا ذكرى عنه. ولكن كيف بي، وهذا العالم الذي حطّ على صخور القمر، ومنه صار يرصد الشموس والأقمار، وتقول مراصده ما لا يستطيع تعبير أن يمليه

على ورق؟!! إنها من عوالم الله، إنها من أسرار اللّه وحكمته. إنه سلطان اللّه الذي علّم الإنسان ما لم يعلم.

في لحظتي التي أكتب فيها من ترابية الأرض عندي هذه الألفاظ أستغفر اللّه وأرجو رحمته وغفرانه، سيسألني في الدار الآخرة: ماذا معك؟ ماذا علمته أو تعلّمته؟ وفي هذه الحالة أأقول معلوماتي وما تعلمته من حكايا وقصص أبي زيد الهلالي والزير سالم؟ أأقول هذا ما معي؟ أخشى أن تتجاوزني رحمة اللّه فتقف بي على حافة الهوة الواسعة من المسؤولية التي حملتها معي يوم أشفقت منها كل الكائنات وتقول لي: أنت حملت الأمانة، وبحملك لها، لا بد من أن تُسَاءَل عنها. ألا تعلم أن هذا الكون الواسع العظيم والمشاهد الجليلة من ضمن أمانتك؟ كلما وعيتَها تضاعف إيمانك مثلما يضاعفه خطيب مسجدك؟ فالتأمل الذي لا ينتج عنه غير الفراغ هو تأملك، أما المتأمل فهو الذي يخرج من تأملاته أكثر إيماناً وعملاً.

في لحظة الخوف من هذا التصور والاحتمال، نهضت عندي روح المجادلة والدفاع عن النفس. صحيح أنني أستحق العتاب، وقد أستحق العقاب والمؤاخذة إذا لم تتداركني رحمة اللّه. فجهلي بقوانين اللّه ونواميسه وأسراره في ذاتي أو فيما هو خارج ذاتي، فيما هو حق لي أن أجادله بالعلم في الكون أو في السلوك العام أتركه لغفرانه ورحمته!!

ولكن أليس من حقي أن أضع ملامح للصورة والصور التي عليها إنسان ارتياد الفضاء؟ إذا كنت مقصّراً وعاجزاً أن أتجاوز التفكير الذي لا يكلفني شيئاً إلى دراسة نفسي، وما في هذا الكون من حق شرعي لي، فليس عند رائد الفضاء ما يشدني إليه. فهو إنسان، في تقديري، تقدّم في شيء، وتخلّف في أشياء. تقدم في الكشف عن بعض ظواهر الحياة، ولكنه، وإن راح بعيداً، فقد تراجعَ في أشياء كثيرة. وفي هذه الحال، أخشى ما يخشاه الرجل المسلم اليوم ألاّ يكون في العِير ولا في النفير، فلا هو من رواد الفضاء ليكتشف شيئاً من أسرار اللّه، ولا هو من رواد نفسه!! قد يُفرِغ نفسه ويذهب وراء رجل الفضاء يقلده في السلوك وفي الأخلاق، ولا يقلده في علوم الحياة المعاصرة والاكتشافات التي هي وعظ إلهي عظيم، وهذه هي الخسارة الكبرى التي يأسف لها الرجل المسلم!!

أرجو ألاّ يعيبني عند اللّه جهلي بعلوم العصر... نعم، لي مركبة هي ناقتي وجَملي، لي خيمة أنصبها في قلب الصحراء، أسجد فيها للّه الواحد القهّار، فهذه الخيمة لا تساويها عندي خيمة نصبها على سطح القمر رجل لم يصلِّ داخلها ويقدر اللّه حقَّ قدره، أمرنا وأمره إلى اللّه!! ولا يعني أني من خيمتي لا أرى ما في هذا العصر من إيجابيات كبرى تجاوز بها الإنسان تراب الأرض إلى الفضاء، وخرج بالإنسان من نفق الحياة الضيق إلى رحاب الكون، ومن تفسيراته له التي كان يقيسها بخطى

الحصان والجمل إلى خطى المقاييس الضوئية. فالعصر الذي أخذ يفسر هذا الكونَ وسَعَتَهُ بمقاييسه العلمية هو الذي نأخذ منه هذه الإيجابيات التي تزيد إيماننا باللّه إيماناً وترفع من شأن الإنسان ودوره في هذه الحياة. وقد عبّر عن نفسه وعن آدميته تعبيراً لم تصل إليه أية ظاهرة من ظواهر الكون.

والمشكلة المعقّدة عندي، والتي لم أجد لها محللاً ولا مَخرجاً بها من هواجس النفس والآتيات إليّ من الخيال: كيف بي معها والشيخوخة تدبّ في عظامي؟ لا أدري، هل من أمل في أن أجد فيما بقي لي من الحياة مكاناً رحباً يتسع لأطراف المشكلة وعُقَدِها فألقي بها فيه؟ فالعصر الذي عَصَر الآلام والمعاناة وأسقانا إياها كأساً كأساً، ما حالنا معه، عرباً ومسلمين؟؟ فالدور مرهق وعاقّ، عقّت كثرة الشعارات عروبتَنا، وبددت شملنا وروحنا، ونقضت وحدتنا حجراً حجراً، وها نحن أولاء بدءً من المحيط إلى الخليج، كل منّا يُغنّي على ليلاه!! والآخرون من حولنا يُغنّون نشيد النصر والشماتة بنا!!

هذه الخواطر والأحاسيس أتت إلى أوراقي عابرات سبيل، لا أدري أتُغضب أحداً فأعتذر إليه؟ فهي عندي من ودائع الماضي البعيد، حفظتها لي كبد الصحراء إلى يومي هذا... فأملي ألاّ يكون لها قارئ توحشه جهالته من قراءة نفسه أو ما هو خارج هذه النفس!! فالقراءة في ورق الكون وحروفه غير القراءة في ورقي أو ورق غيري، فحن نكتب ونهذي من محدودية الفهم عندنا!!

12 ـ آمال جثي على الطريق

بالأمس، أيها التاريخ، وأنا أقرأك رحلة رحلة تساءلتُ: أهذا هو التاريخ ولا شيء غيره نتساءل عنه؟ فتنادت من حولي خاطرات أتت من البعيد الذي تمدد في ذهني إلى أن قالت لي الأحداث وقالت لي الخاطرات: ما تمدَّدَ هو بداية إلى ما لا نهاية له في الذهن، وفي كون اللّه الواسع. فراعتني الأحداث من حولك، وهي حاملة معولها تهدم الحضارات وتنكّش الشرفات من إيوانَي كسرى وقيصر. سألتُها ألا تهابين هذه القصور؟ ألاّ تخشينها؟ فوقفت عملاقة وقالت: إذا جاء أمر اللّه ومشينا إلى حيث نصحّح الخلل ونقوّم الاعوجاج لا نطرق الأبواب نستأذن من ورائها ربَّ القصر: أتسمح لنا بالدخول أم ننصرف؟ فسنن اللّه إذا هي مشت وسارت إلى النفوس التي صدئت ودبت فيها روح الفناء وظهرت عليها أعراضه، حوَّلتها إلى عبر تاريخية لتعظ كل من شيدوا القصور على أمراضٍ من سوء السلوك، وأقاموا الدولات، وظنّوا أن الحياة وما فيها من مغريات استسلمت لهم، نعم، وعدٌ صادق: {وتلك الأيام نداولها بين الناس} .

ولا أدري، أيها التاريخ، والدنيا من حولنا لم تكن دنيانا، ولم نكن أهلها، ولم تكن أوراقُها أوراقك من يوم كان للإنسان أوراق! ألا نخشى على أوراقنا عندك أن يطويها العصر ولا نعرف أين يضعها فيختفي ما لنا فيك

من عظيم وكريم وإنساني؟ ألا نخاف أن يقول لنا العصر: ذهب كل شيء من الأصيل فيكم والكريم فلا رجعة ولا تاريخ؟!! فالعلم اليوم يستدعي من أعماق البعيد والخفي ما لم نره في أوراق التاريخ ركباناً وراء ركبان من النجوم والأقمار والشموس، والكون هائمة به ليلى العصر، تستعجلني أوراقي وتشدني أن أدخل بها في كوني الذاتي وأمشي بها في فضائه كما تمشي كواعب النجوم وتسير في فضاء اللّه. لا أدري، والرحلة مع النفس شاقة، أأعود إلى ركائبي الخاصة وأفتشها مطية مطية لعلي أجد فيها راحلة واحدة تحملني في رحلتي هذه مع الأوراق أملاً في أن تستقبلني فيها أسيرات الدهور السحيقة مَنْ لم يرتدهن عقل ولا فكر ولا تساؤل؟ ظللن أسيرات الأوهام والجهالة وسوء الفهم عندي، أقول لا أدري، ولكن ليت ورق الذات وما فيها يحترق وتذهب به رياح النفس لأستريح من قلق العصر ووحشته! فأوراقي هذه سوقية في عالم الأوراق والحسابات التي حملها العقل والفكر إلى أبعاد كونية وأدخلها سلطانُ اللّه في أوراق الحاسبين والذاهبين إلى البعيد والآيبين منه.

لا أستعجل الأحداث في سيري مع الورق، ولكني أخافها فأحاول بهذا أن أتّقيها بوعي أهل الحي العربي من المحيط إلى الخليج، فالعقل اليوم أركَبَ العصرَ طرقاتٍ هامت بها مداركه وخياله الذي لا نعرفه، نحن البسطاء، مَنْ كنا نخرج من خيامنا في هزيع الليل، في

قلب الصحراء لنبادل النجوم في السماء نظرات هائمة بها، عاشقة لليلاها، وهي تبسم لنا بسمات زهرات الربيع، فنفرح ببسمات ليلى النجوم وبثينة الفضاء، ولكن سرعان ما تتدافع بالمناكب سحب داكنة وغيوم نرى معها نجماً واحداً، إن كان داخل النفس أو خارجها في الفضاء. وهنا تتلاعب بنا عواطفنا وتحرق مشاعرنا أوراق شجرة الخيال التي ظمئت في أعماق النفس وهيأها الظمأ للحريق... سألنا نجوم السماء: ألديكنَّ خبرٌ عن غدير جفَّ فلم يعد له واردات ولا عاشق يسارق ليلى وأترابها النظر على حافة الغدير؟؟ أتساءل على جنباته في جناح الوادي يوم مررت به، فذكرتني الرسوم والأطلال بمن قال:

أفاطِمَ مهلاً بعضَ هذا التدلُّلِ
وإن كُنتِ قد أزمعتِ صَرْمي فأجْمِلي
أغرَّكِ مني أنَّ حُبَّكِ قاتِلي
وأنكِ مهما تأمُري القلبَ يفعلِ

قال هذا مَنْ خرج عن مُلك أبيه وهام في الصحراء، يطارد ظباء الفلاة وشبيهاتها من بنات القبيلة في قلب نجد. قال هذا امرؤ القيس لأنَّ لفلسفة الحياة عنده مفهوماً غيره عند أبيه وحاشيته.

ألي أن أتساءل ـ أيها التاريخ ـ لماذا هو هكذا؟ لماذا أخذ مذهباً أسرف في تجاوزه على حياة عصره؟ لماذا ولماذا؟ ماذا أقول؟ ولمَ أعاتب وأحتجّ عليه؟ لماذا

تحمله إلينا هكذا؟ ليتك حملته إلينا كما حملتَ قيساً وليلى وكثيّراً وعزّة. فيوم قال كثيّر:

قضى كلُّ ذي دَينٍ فَوفَّى غَريمَهُ

وعزَّةُ ممطولٌ مُعنًى غَريمُها

أكرمَ عزّة وأعلن عن مذهبها، شهد لها بالمنَعَة؟ غردت شهادته لها تغريد الحمام فوق جريد نخلات الزمن.

فالحياة جافة، ميتة على شفاهها نضارة هذا الكون، ظامئة ظمأ من ماطلته حبيبته وأذاقته مرارة الحرمان. نعم، الحياة ميتة في الإنسان، عقيم إلى أن تذهب إلى بيت المأذون وتلقي قبلتها هناك على شفة أحرقها الظمأ!!

ولا أدري، أأنا بهذا تصابيت بشيخوخة هاجتها الذكريات عن الصحراء، وعن بنات قومي العرب وعن المأذون، فرجعت إلى الماضي رجوع الشيخ إلى صباه؟ أم أني بهذا أمجّد كأساً لم تسفح ما فيها على الرمال يد آثم عابث؟ لا أفهم عن المرأة أكثر من تجربة مَنْ قال: «وعزّةُ ممطولٌ مُعنًّى غَريمُها».

لا أدري، أيها التاريخ، هل تقبل أن تَدخلَ هذه الخاطرة في أوراقك أم لا تقبل؟ إن لم تقبل بها فألْقِها في الشارع العام، فما أردتُ بها غير أن تراها ابنة العصر من لم ترد الغدير ولم تركب الهودج، ومن هي والعصر في صراع عنيف، هو يُريد أن يأخذها إلى فلسفته ويسلخها من الماضي فلا يبقى لها معه ذاكرة في ليلى أو بثينة.

أعود إليك، أيها التاريخ، وليتني لم أعد، ليتني بقِيتُ مقيماً ما حييت، في خيام البدويات راكبات الهودج. ليتني بقِيتُ تائهاً في قفار الصحراء ليس لي أوراق ولا دراية ولا معرفة بشيء!! ليتني أضوي مع الليل بأغنامي إلى خيام أهلي ثم أهجع على أحلام جميلة!!

ليت للزمان ساقاً يمشي عليها لتعترضَه على الطريق إليّ وإلى أيامي صخور الجبل فتكسرها لتعوقها عن اللحاق بي قبل زيارة المدفن!

أنا هاربٌ من العصر، ومن أخبارِه وأحداثه، إنه ماشٍ إلينا على جناحٍ، أسرع من الضوء، لم يكن جناحاً عربياً وإسلامياً، إنه يعيبنا!! لا أدري إلى أين أهرب منه ومن مطاردته لي؟ فهو الآن أخذ علينا الصدارة، وليت من قال: «لنا الصدر دون العالمين أو القبر» يرجّعها اليوم في صوت بطولي من المحيط إلى الخليج، فتستجيب له الأمة وتناديه: لبيك لبيك من صوت كريم!! ولكن هيهات! آمال جثي على الطريق الطويلة لا تتحمل الصدارة ولا تعي الطريق إليها!!

كلفتني خواطري إليك ـ يا شيخنا التاريخ ـ حمل أثقال من الهموم تداعت على عقلي وضميري، وهي الآن ما أفسح لها الطريق إلى هذه الأوراق لتحملها عني، فأنت حمّال أثقال، لا تُسائِلُ ولا تحتجُّ على الخاملات من الأفكار والأفعال، وهذا هو ما أغرى كل الخاملين والغادرين والمعيبين أن يلوذوا بجناحك لعله يضفي عليهم رداءه فينستروا تحت ظله!!

بودي أن أسترضيك وأتعامل معك في شيخوختي تعاملي مع عصاي التي أتكئ عليها لتسندني من السقوط، ولكن قد يفسد عليّ ذلك هدفي من هذه الخاطرات، فيكون السقوط عندئذٍ مميتاً، فالذين سقطوا أدبياً وخلقياً في أوراقك هم هدفي، وهم من أريد أن أدعو كل مثقف ومفكر إلى أن يُنزلهم من فوق عاتقك لتنظف أوراقك!

13 ـ أللملل والضجر قبائل؟؟

ما أكثر الجائعات عندي من خاطرات النفس!! وما أقصر خطاي عن التطواف في آفاق لا أدريها!! فليلي طويل، والليل الطويل ملّه رجل قبلي فناداه:

ألا أيُها الليلُ الطويلُ ألا انجلِ

بصُبحٍ!! وما الإصباحُ منكَ بأمثَلِ

نداء احتجتُ إليه كثيراً فردّدته في كل مناسبة. ألي أن أتساءل: أللملل والضجر والقلق ـ أيها التاريخ ـ قبائل تشدّ وترحل في أرض الإنسان وتضرب خيامها في غياب القمر؟

ولا أعرف، لماذا أنا والليل الطويل والقلق على موعد مع قصر بناه لي النفط؟ أأهرب عنه إلى الصحراء ومنازل قيس وليلى؟ أنا مُتعبُ الذكريات، مُتعبُ الروح. أنا رجعيّ مُتعصبٌ لأيامي البعيدة، أيام كنت أفترش الرمال والحصباء، وألتحف السماء وأغازل النجوم وأعاتبها على الصمت، أسائلها فتبتلع السؤال وراء السؤال، والحيرة وراء الحيرة، وأبو الطيب معي يُردد:

ما بالُ هذي النجوم حائرة

كأنها العُميُ ما لها قائد!

والحيرة في النجوم عند أبي الطيب لماذا تساءل عنها؟ ألأنه لا يريد أن يبقى جِيد الكون عاطلاً من قلادة يُلبسه إياها عقل الإنسان العربي، ويقدح حجر الزناد في

ذهنه ليدفئ به نجماً حائراً أو قمراً بقي في عالم اللّه يشهد مصائب الإنسان وحيرته؟

لا أعرف ما ظنك، أيها التاريخ، بعوالم هذا الكون؟ ألا تتصور معي أنها فرحة بسلامتها من تبعات حمل الأمانة التي حملها الإنسان وأشفقت منها عوالم اللّه؟

في ليلة البارحة خرجتُ إلى الصحراء وناديتُ الكون كله: أعندك خبر عني؟ أتعرفني؟ أبيني وبينك نَسَب وميعاد على اللقاء؟ أنا متعب، وأنت متمدِّد مستريح تسبِّح ربك، لماذا لم تحمل الأمانة عني؟ فقد تبعثرت التصورات على مرآتي الخاصة وتكسرت إرادتي وضنّت عليّ بالمعرفة، ليتك حملتها عني ولم تشفق منها!

أمنيات تدفع بها الهموم من فضائي الذاتي حنيناً إلى المعرفة. تروح التساؤلات وتعود إليّ لأتأمّل فيها وأحاول، والمحاولة في مفهومي لها هي المثابرة وراء الأمل، وهكذا طريق الإنسان الجاد للوصول إلى ما كان يسعى إليه، هدفاً وغاية. قد تتجلى لي حكمة اللّه في برهان من عقلي وروحي أنك أتربة ولهب وأنك آيات عظام زرعتك مشيئةُ اللّه في الفضاء الكوني البعيد، ولا أعرف، أأنا مع التساؤلات مذنبٌ أسيرُ في طريق وعرة، أم أني أتعبد خالقي بالتأمل في خلقه وصنعه العظيم؟

خاطرات تأتي وأخر تتراجع، والورق يُسائلني: أأنت خائف من خاطرات يأتي بها العقل وتأتي بها الروح؟ لا تخفْ، أرخِ لها الرسن فقد ملّث الوقوف والصمت على

جنبات الوادي المقفر، فُكَّ لها القيد لتمشي، وأنطقها فإنها جائعة إلى الورق مثلما أنت جائع إلى الحقيقة!!

ولا أدري أأنا أرى شيئاً أو أسمعه في عالمي الخاص؟ ولكن ما لا أراه، تكتبه يدُ العلم اليوم وترسله لي من فوق سنام الفضاء، وهو ما أقرأه في كل لحظة وأتساءل عنه وعن الكون والإنسان ومَنْ حمل الأمانة ومن أشفق منها.

لا ترعبْني الطريق مع التساؤلات وإن صمت الجواب، سأحاول أن أرمي بثقلي عليها ولا أحيّد كل تساؤل عن هذا الكون وأبعاده وماهيته، وأشد بتلابيب أخي الإنسان أسائله: لماذا لم نحاول أن ندنو من أنفسنا ولو خطوة واحدة؟ لماذا نحن هَمَلٌ ضائعون في متاهات الحياة والرغبات لا نرى قدرةَ اللّه فينا وسلطانَه الذي أكرمنا به؟ يتراءى لي أن من بني الإنسان من لم يكن بعيداً عمّا تُمارسه الأنعام والذئاب. نعم، يتراءى لي من خلال العلم وسلطان اللّه أن الكون الذي أشفق من الأمانة يلملم أعضاءه اليوم ويصيح فيه النذير: أنّ مَنْ حمل الأمانة آتٍ إليك بحجمه الصغير يذرعك ويفسّرك ويقول لك: تأمل فيّ وأكرِمْني بكرم اللّه عليّ، فيوم أشفقتَ من حمل الأمانة وحملتْها مختاراً حملتْ حكمة اللّه وقَدَره فيّ وفيك!!

لا أدري لو تعلقتُ برقبتك ـ أيها التاريخ ـ وقلتُ لك: إني جاهل محتاج إلى أن تنصحني، أعندك لي نصيحة تساعدني في ما بقي لي من أجَل؟ شكوتُ إليكَ

وفتحتُ لك باباً منه تدخل أوراقي لترى ملامح الشكوى فيها آتية من عالَمٍ ذاتيٍ لا أعرفه، فقد أدخلتُ على نفسي وعلى أوراقي همومُ العصر وأحداثه مثلَ هذه التساؤلات وهذا التفكير الغريب غربتي عن هذا العصر.

ولأني الإنسان وابن الإنسان وأبو الإنسان، بدت حيرتي أعظمَ من حيرة أبي الطيب مع النجوم. ما أثقلَ هذه المسؤولية على عاتقي، على قلبي، على روحي!! أنا حائر حيرة النجوم في ذاتي، ليت أبا الطيب لم يُلقِ التساؤلات عليها!

أنا جائع، أنا ظمآن، ومشكلتي أني لا أعرف من الجائع عندي ومَن الظمآن؟ وماذا يمكن أن يسد رمق الجوع ويروي الظمأ؟ لي عشرات السنين وأنا أحاول مجادلة كل نزعة من نزعات النفس عندي لعل الجدل يمنحها الاستقرار والهدوء، ولكن ماذا خرجتُ به من هذه التجربة مع نفسي؟ ما خرجتُ بشيء يُفيد أحداً، فلا أحلامي في المنام أو اليقظة حققت شيئاً أقوله. ولا أدري إلى أي شيء أرد جهلي بذاتي؟ أيمكن أن يكون للإنسان رسالة لم يؤدِّها ولم يستكمل كدحه في سبيلها؟ لو تساءلتُ ثم تساءلت وأسرفتُ في التساؤلات، لا أحد يجيب!!

أنا من جيل الخيمة والجمل والصحراء، أنا من جيل ما عرف القيود ولا عرف المدنيّة، ولا رأى طائراً غير طائر الصحراء، ولا شرب إلاّ من مياه السحب ومن ضرع ناقته. وإنسان هذه حاله: الماضي أجمل أيامه وذكرياته،

كيف به، وقد ألبسته مُحدثات العصر الخِطام، وقادته من الصحراء إلى المدينة؟؟ وقالت له: هذا هو العالم الجديد، ألقِ ما عليكَ مِنْ ملابس الصحراء، واقبل بالتكيّف في عالم الحضارة المعاصرة؟ ثم فتحت جيبي وقالت لي: ماذا تُريد أن أحطَّ فيه؟ فعليك علامات البؤس والاصفرار والنحول؟

أعياني الجواب وعجزتُ أن أفهم ما هو العالم الجديد؟ وما هي الحضارة؟ وما هو الجيب؟ وما يمكن أن يدخل فيه؟ تساءلتُ: لماذا الجيب وحده مَنْ وقفتْ مِنْ حوله التساؤلات؟ ولماذا وقع عليه الاختيار؟

ويومها أدركت أن الجيبَ هو المدخل إلى تنشيط الغرائز والرغبات وتحويل مجرى سواقي الذهن والفكر إلى مياه آسنة لا تروي ظامئاً ولا تردّ يد لامس، يتحسس بها في ظلام الليل طريقه إلى الغواية لا إلى مصلاه أو معبده!

والجيب الذي جاءت به الخاطرة الآن هو الجيب الذي لا يدخله غير المحرّم والمحظور، هو الجيب الفاسق والرديء والكريهة روائحه!!

لو ذهبتُ إلى مراتع صباي وتنقلتُ من ظل شجرة إلى أخرى، من غدير إلى غدير، من كهف إلى كهف، من دوارِس الآثار إلى الذكريات معها، فهل سيعرفني كل هؤلاء؟ لا أدري، ولكني سأذهب، تسندني عصاي لأذرف الدمع هناك، وأناجي ماضياً فيه ليلى وبثينة، وفيه كثيّر

وعزة، وفيه الخيمة والربيع... إلاّ أني خائف أن تضنَّ عليّ الحياة وتضنَّ عليّ الشيخوخة بهذه الأمنيات...

أحالم أنا في لحظتي هذه مع الورق بالمستحيل؟ وهل أنا ممن يؤمن به فأمد له حبل الأمل ليضع القيد في قدمي لأنه مستحيل؟ أبداً، لا أفعل، ولا أمد له قدم عقلي ليعوقها عن السير في آفاق هذا الكون وآفاق نفسي، وإن قدَر أنه عالِم العصر وفيلسوفه. لن أهمل آدميتي ولن أضنّ عليها بحقها في الحياة، سأرحل ثم أرحل ولا أضع الرحل عن جملي الذهني، سأواصل الرحلة داخل نفسي أفتش فيها عن ضالتي، عن ضائع لي لا يهديني إليه غير كدحي إلى ربي. أرجو ألاّ يلهيني «الجيب» عن حقائق هي لذتي وهي سلوتي وهي زماني وعالمي الخاص.

ما تلاعبث بنا الهواجسُ والظنون وحطت رحلها علينا إلاّ لأننا لا نمشي إلاّ على الرمال والآمال الهشة. متى أدركتُ ذلك؟ أدركته بعد تجربة طويلة لم أدر معها ما الذات؟ ما الذي معي أكابد حمله؟ ويوم عدتُ إلى نفسي، إلى ذاتي مِنْ صخب الحياة استقبلتني هذه استقبالاً أليماً، وأخذتني إلى كدح مريرٍ عسير التغيير. وهذا ما أحاول في كل ما كتبتُه أن أعبّرَ عنه لعلّي أجد هادياً من داخل نفسي يقول لي، على لسان الخاطرات، مَن أنا؟ ومَن أكون؟ وما الذي معي وأجهله؟ ولعل هذا، الذي يملي عليّ مثلَ هذا التطلع إلى التغيير، مجادلٌ

يدنيني من فهم شيء أسعى إليه، ما حييتُ، لتخفيف متاعب الحياة.

ما الخاطرات في ظني، أيها التاريخ، إلاّ ناقلات بريد تسلمه إلى الذات. فلولا الورق والقلم ومحاولة استجداء الذات مما لديها من حوامل الفكر لتعطلت الحياة، ولما رأينا الإنسان اليوم يلملم أوراقه ويذهب بها معه إلى الفضاء ليكتب من هناك تاريخ الرحلة لعله يقول لنا: ما الرحلة إلاّ رحلة العقل بسلطان اللّه!

نعم، لي ولأهلي العرب معك ـ أيها التاريخ ـ ذكريات أخذن مكان الصدارة في العالم كله، وحلبن من ضرع الكواكب والنجوم في ذهن الإنسان العربي دَرّاً فاضت به الكأس، وأوشكت أن تسفحه يد الفكر على رمال الكون، ولكن واحسرتي وحسرات أهلي على يدٍ للزمان غليظة امتدت إلى الكأس التي حملتها جمجمةُ الإنسان العربي وأخيه المسلم [4] فسفحتها على الرمال!!

لا أذمُّ الزمان، ولا أثني على اليد التي حطّمت الكأس وأراقت ما فيها على جماجم الآخرين، من هم اليوم ينظرون إلينا بازدراء من علوّ الفضاء!!

4. كابن الهيثم والكندي والبيروني والرازي وإخوانهم.

14 ـ أذن الوقتُ بالفراق...

قبل أن أكتب لك هذه الخاطرات ـ أيها التاريخ ـ أخذتُ أسائل نفسي وأجادل الأشياء من حولي: لماذا التاريخ وحده مَن تمَّ اختيارُ توجيه التساؤلات إليه؟ اعترضتني أجوبة كثيرة، كلٌّ منها يُحاول أن يدخل أوراقي بما عنده من أخبار عن واقع أليم انطوى تحت جناح الليالي والأيام، فأوقفتني اختياراتي على الطرقات، وقالت لي: كل الطرق شائكة، والسير عليها محرق للقلم وللأوراق. تساءلتُ: لماذا هي شائكة وملتهبة، وهي تشهد طرق الآخرين معبدة إلى أعماق الأرض والبحار والفضاء؟ ضنت عليَ الاختيارات التي معي بالسير وراء اختيار واحد، فبقيتُ حائراً على أوراقي إلى أين أذهب؟ فقد تجمد كل اختيار في مكانه ولم يقبل أن يمشي خطوة على الورق، ولا أعرف ممَّ هو خائف؟

تضاعفت الحيرة وتضاعفت التساؤلات: هل منازل الخوف، هي منازلنا، نحن العرب؟؟

انصرفت الأجوبة والاختيارات هاربة من حولي لأني أدنيتها من ساحة الرعب. يومها قدَرتُ أن رحلة القلم مع الورق في هذا العالم اليوم شيء مخيف وربما مهين، فاتجهت إليك، أيها التاريخ، وإلى أوراقك أقرأها وأقرأ ما فيها من أمجاد ومآسٍ وانحرافات، وغامض يثير التساؤلات.

نعم، أظن أني أكرمك بهذا، وأحاول أن أستغيث بالأقلام العظيمة والكريمة أن تعترضك لتُنزل من فوق ظهرك الطغاة والمفسدين للدِّين والدنيا. فما تخلّف إنسان في هذا العصر إلاّ لتخلُّف من ورّثهُ هذا التخلف وأرسله إليه. ليت بعض المفاهيم في أيامنا هذه تتحمل نقد القلم ولا تضيق بمجادلته وتصحيح مساره!! ليصحّ المسار العام في العالمين العربي والإسلامي اليوم، ولكن المثل العربي يقول: «كل فتاة بأبيها معجبة». كلٌّ يريد أن يدخل بيت ابنته المعجبة به لتصفق له، وأنا أكتب لابنتي لعلها تُعجب بي فتصفق لي: كلنا في الهوى سواء، كلنا غضوب مقاتل عن فهمه، وإن كان رديئاً. كلنا مغمضُ العينين عن رؤية ما جدّ في هذا العصر من مُحدثات علمية، لأننا العلماء والأدباء والمفكرون!! وهي محدثات أذن الله بها للإنسان ليعتبر وليتفهّم صُنع الله في خلقه البديع لعلّه يقدُر اللّه حقَّ قدره. ولا أدري أهذا خاتمة المطاف في هذه الرحلة، أم ماذا؟

أشعر الآن ـ أيها التاريخ ـ أنك ضَجِر مني تتململ من لقائي بك على أوراقي، ولا أعرف لماذا هذا الضجر عندك؟ ألأنك خائفٌ أن يأخذني فضولي إلى معركة «صفّين» و«الجمل» والدخول إليهما مخيف ومحرَّم؟ أبداً، لن أدنو منهما، ولكني سأدخل معركة النهروان مع الإمام علي ـ رضي الله عنه ـ فخوارج النهروان أجلاف من العرب، أسرفوا كل الإسراف في آرائهم وأفكارهم التي خرجوا بها على الإمام علي، كرم الله وجهه، وإن

قال قائلُهم: وهو الطرمّاح بن حكيم الطائي (توفي سنة 100 هـ)

فيا ربِّ، إن حانتْ وفاتي فلا تكنْ
على شَرجعٍ يُعلى بخُضرِ المطارفِ
ولكنّ قبري بطنُ نَسرٍ مَقيلُهُ
بجوّ السماءِ في نُسورٍ عَوَائِفِ

ما أكثر ما معك ـ أيها التاريخ ـ من آلام وأحزان وفجائع!! إن مَنْ لا يعرف فضل الإمام عليّ ودرجته العظيمة بين المسلمين لإنسانٌ موغل في جهله وإسرافه.

والمشكلة التاريخية أن التطرُّف في حب الإمام عليّ وكرهه، والمغالاةَ في ذلك، ابتعدا عن الاعتدال وأسرفا في الابتعاد. إن مَنْ يغلو في حب الإمام عليّ، رحمه اللّه، ويشقّ وحدة المسلمين بهذا الغلوّ، ربما يكون في درجة من يتطرف ويغلو في بغضه والخروج عليه.

نعم، أيها التاريخ، جاءت هذه الملاحظة عَرَضاً في هذه الخاطرة، فعرضتْ نفسها عليها، والحسابُ عند اللّه سبحانه وتعالى.

فمسار الليالي والأيام بالإنسان أوجعتْ خاصرته ومعدته، وصدَّعت جمجمته وفكره. لا أظن أن إنساناً لم يُعانِ من هذه الأوجاع... تجربة لا فلسفة ولا استرضاء للأوراق بمعاشرة القلم لها، بل واقع أخذتني إليه الحياة، كما أخذت غيري هدفاً لها.

لا أعرف أأضع أوراقي على الرف، وآخذ منها إجازة لأحاول أن أتعرف إلى عائلتي الخاصة؟ فهي الآن تُدير معي حواراً لا أفهم لغته. أمدّ إليها يد وعيي وأسائل ذاكرتي: ألديك خبر أو علم يضيء لي الطريق إلى هذه العائلة، أم أخلط أوراق النفس مع أوراق التاريخ مع أوراق العصر، كما تختلط الإبل العطاش على حوض ماؤه شحيح، فما هامت على وجهها ضالة الإبل في الصحراء إلاّ بعد أن ظمئت وجاعت وأضاعها صاحبُها وأضاعها الخلط.

ولا أدري، وإبل العصر ومطاياه الذهنية والفكرية والوجدانية قد أخذت حيّزاً من الزمن، لياليه وأيامه غير لياليا، نحن بسطاءَ الأمس، الذين نمشي على أقدام حافيات تأكلها حصباء الوادي مثلما يأكلنا الجوع والظمأ وتأكلنا العزلة عن هذا العالم، أللزمان بأيامه ولياليه شباب وشيخوخة؟ وأن شبابه هو ما معك وشيخوخته هي ما مع هذا العصر؟ لا أدري، ما مقدار قول أبي الطيب من الحقيقة حين قال:

أتى الزمانَ بنوهُ في شبيبته
فَسَرَّهُمْ وأتيناهُ على الهرم!

يُدمي قلبي ويجرح كبرياءَ الإنسان عندي ـ أيها التاريخ ـ تزاحمُ الضالات من الإبل في بيداءِ أيامِ أبي الطيب ولياليه، يوم أشهده بائساً متألماً، وآخذ أوراقي إليه ليملي عليها شيئاً من بؤسه ومعاناته، وتتفجر عيناه بالدموع أمسحُها بيدٍ حانية عليه حتى لا تبلّلَ الأوراق،

وتمحو من ذاكرتها المشهد الرهيب الذي هو عليه، أبكي لبكائه وأحزن لأحزانه وإن كان مِنْ زمان غير زماني.

تمشي إليّ الآن زحوف من المتناقضات، كل عشيرة من عشائر هذا الكون داخل النفس وخارجها تلقي على عقلي وتفكيري ملاماتٍ جائعةً وظمأى إلى شراب تسفحه على تربتها الجافة سواقٍ من العقل، أشعر بدفقها الروحي والفكري، ولا أعرف عنها أكثر من ذلك... كل شيء خفيّ لكنه موجود!

لا أنزع عن الحييّ ملابسه وأسبح في سرابِ الوهم، فالسابحون أخشى عليهم الغَرَقَ في عصر الطوفان. أمشي مع جِمالي الذاتية وأسير حيث تسير في الطريق السليمة، أسير ومعي الخطام والقيد لجمل أو جِمال قد تتجاوز على ما لم يكن لها.

فكم من مرة تلاعبت بي بنات الحي الذاتي وحاولن أن يغرينني لأنزع الحياء من نفسي وألاعبهن على وجه الورق... نعم، كثيراً ما أتذكر وأفتح منافذ ذهني لكل ذكرى جميلة ذات حياء وخفر، ولكن لأنهن من أيام مضت أعيا عليّ مجيئهن، أبَيْنَ أن يخرجن من الخيام في قلب الصحراء إلى حيث أخذني العصر مع ما أخذ. هن رجعيات، وأنا شيخ متسوّل، أتسوّل من العصر أن يهادنني فلا تقسو عليّ أيامه. ليتني أستطيع أن أمشي داخل نفسي وأطوف في شوارعها وسككها وصحاريها، أخيل نجومها وأقمارها وشموسها، ولكن «ليت» ما شفث غليل إنسان قبلي طرح أمانيه.

لا أدري أين طريقي إلى نفسي، إلى عالمي الخاص؟ لقد أعياني التطواف في هذا العالم من مدينة إلى أخرى، ومن بلدٍ إلى آخر، أجرجر شيخوختي البائسة. حاولتُ أن أزوّر شخصيتي وألوّن فودي الأبيض بالسواد لتقبل بي فتاة الحي، وأكون حضارياً متمدناً، كما يُريد العصر مني ومن أمثالي. ولكن، كثيراً ما تعترضني وتمسك بتلابيبي خاطرة وتقول لي: لك حضارة، ولك مدنية. حضارتك ومدنيّتك وإنسانيتك بَنَتْها الخيام، وبناها الإنسانُ العظيم. لا تكن إمّعة، أقم مع الجميل والعظيم من تراث أهلك وقومك العرب!! وابْنِ خيمتَك!

كلام جميل، ولكنه تاريخ، إنه ماض، نُريد أن يكون حاضراً لا ماضياً، ثم إن في أوراقك، أيها التاريخ، ما يوحشني ويُفسد عليّ أمني الداخلي واستقراري.

لقد ضجر الركب داخل النفس واضطرب، وغابت عنّي نجوم الذات وخاطراتها فأذن الوقت بالفراق... وغداً أو بعدَ غدٍ أستقبلك ـ أيها التاريخ ـ على أوراقي استقبالي لشيخ كبير، أبقى معك تلميذاً متواضعاً مؤدَّباً، وفي حالة مرورك عليّ بفاسق أو مجرم أو مزوّر للقيم وللأصالة سامحني إذا عاتبتك وأقمتُ على طريقك إلينا علامات استفهام. فرحلاتك مع الزمن بآلافها أو ملايينها في مقياس خطو الجمل بك أو ركض الحصان أو المشي حافياً، ليس عسيراً على العقل اليوم أن يقطعها في لمح البصر لتراها وأنت مستلق في غرفة نومك.

لا أعرف لماذا نحن، أرباب الجمل والحصان، لا نُجَنّ لهذه المفاجأة العلمية؟ فقد أتت إلينا مع غسق الليل، ولحانا قد شابت. لماذا لا نُجَن؟ لماذا أَلِفْناها وفتحنا لها الأبواب؟ دون أن نقرأ عنها خبراً في أوراقك؟ لماذا أشرعنا لها سماءنا وأرضنا وبحارنا، نحن العرب، وقد دربتنا الأحداث والصحراء على الحذر من الغرباء الوافدين من المجهول؟ ألأن أجلاً عطّل فينا إرادة التساؤلات: مَنْ أنت؟ مَنْ تكون؟ ما الأبعاد التي يمكن أن نختلف معك عليها في الوسائل والأهداف؟ لا أدري، ولكن هذه كثيراً ما أحرقت كبدي!!

15 ـ يكفكف الخيالُ أعضاءه

عندما يجلس المرء معك ـ أيها التاريخ ـ ويفتح لك أوراقه لتملي عليها من سارحات ذهن الإنسان وآيباته أفكاراً أو هواجس أو ظنوناً، ويرحل به الخيال والتصور إلى اليوم الأول الذي درجث فيه قدمُك بأول خبر من الأخبار، يتلاشى الزمن ويكفكف الخيال أعضاءه حتى لا شيء بعيد ولا قريب. فيوم استيقظ العقل في هذا العصر ومدّ ذراعه بسلطان اللّه ليتناول بها ما كان مأذوناً به في الزمان والمكان الكوني أخذ يفسر أحلاماً ربما حَلِم بها الإنسان منذ زمن بعيد، ثم عجز عن تفسيرها.

ولا أدري، وخواطري هذه آتية إليك من ذهن عابثة به ذكرياتٌ سرحن به في قفار الصحراء زمناً يرعى فيه أغنام ليلى النجوم ويلقي عليها تساؤلاته: أأنتِ في القفر البعيد آمنة من ذئاب الجبل؟ تساؤلات يطلقها الحنين في ربيع الشباب، في منازل قيس وليلى.

لا أتساءل، لأضع على علامات الاستفهام ضباباً من الشك يخفيهن عن طالب الحقيقة، فالحقيقةُ نحن الضائعون عنها، وليس علامات الاستفهام، فهنَّ على فم هذا الكون باسماتٌ ضاحكات للإنسان المتسائل والعاتب!!

ولا أدري، هل اختفت الابتسامة في هذا العصر من أفواه الزمان والمكان والغيوم والنجوم وحتى الطفل

الرضيع؟ لا أمهَدُ الأمل في مهد الطفل الصغير وأقول إنه سقيم الأعضاء، رأسه مصاب بالصداع، أخشى عليه من قاتل يُطارد الأمل في عواصمنا وفي قُرانا وفي أرض كانت تبشّر العالمَ أخلاقُها وقيمُها بالسعادة.

لا أعرف، أيها التاريخ، أمعك من رعى أغنامه فأضاعها في أودية الزمان؟ أفتحُ أوراقك من عشرات السنين أبحث عن هذه السابقة لعلّي أستريح في خيمتها، فيعذرني العصر ويعذرني اللائمون فيه. قد أكون وريثاً لحق به الميراثُ من جدٍّ بعيد لا أعرف زمانه ولا مكانه، فالقفر الذي تراجعث دونه تصوراتُنا وعادت إلينا حسرات في نفوسنا هو اليوم يرتاده الإنسان بسلطان اللّه، ولا أعرف بماذا استقبلت النجومُ والكواكبُ الرائدَ الأول، أفَرِحَث به واستقبلته استقبالَ الفاتحين؟ أم أصابتها الوحشة من مغامر لم يقبل أن يبقى مِثلَنا على هذا التراب يتسكع ويتشمم روائح الراقدين من كسالى العقل؟ مثلي إنسان لا يعرفُ غير الظنون والهواجس وكيف ولماذا...

تعضني الآن ذكريات لم تكن ذكرياتي، ولكنها من ذكريات التاريخ البعيد، يوم أستقبلهن في بيتي لأتعرف إلى ما فيهن من جمال أو قبح، ثم أحاول أن أستدرجهنّ واحدة واحدة مع التساؤلات لرفع البراقع عن وجوههن أو سيقانهن يفزعن إلى كاتب التاريخ يتراكضن: بدوي من أبناء الصحراء يُريد أن يكشف الغطاء وما تحته. فلو

كَشَفَ ما زوَّرته الأقلام لتهشمت مرايا لمَّعها المنافقون عبر التاريخ.

أنا بهذه الخاطرات لا أحمل عليك ـ أيها التاريخ ـ ولا أحمّلك أخطاء الإنسان وجَوره وفساد أخلاقه، أبداً، بل أحترمك وأجلّك وأعترف لك بالفضل العظيم، فقد أطلعتَنا على ما كان بعيداً عنا وقرّبتَنا من هذا البعيد وقرّبتَه لنا.

هدفي من هذه الخاطرات فتح ثغرة أو كوّة بسيطة على عورات المؤرخ المزوّر وسيّده ليراها الإنسانُ العربي وأخوه المسلم، فينفيها عما كان لنا من تاريخ إنساني وحضاري نخشى أن تُغرقه سفنُ العصر الفضائية، وتُغرقنا معه وتقول: ليس لكم مكان في هذا العصر فلتختفوا!! وهذا أخطر الأخطار علينا، إذا لم نصحح مسار التاريخ ونُمسك بتلابيبه حتى ينتفيَ عنه الخَبَثُ!!

لا أقول هذا أيها التاريخ تسميةً أو شماتةً، ولكن ما لم أقله سثمليه على الدنيا وأجيالها الآتية فضلاتُ ما في التاريخ الذي معك لِترهق به حضارتنا وعلماءنا وتقيم على رسالتنا الإنسانية علامات استفهام. قد يُرهقنا الخوف نحن هذا الجيل، ويرهق استقرارنا وأمننا وتراثنا، ويقول لنا العالم الجديد: فليذهب كل خَلِقٍ عن عالمي. قد يقول ويقول، وإذا قال، هل نملك الردّ عليه؟ نعم، يمكن أن ترد عليه وحدتُنا وقيمنا وتراثُنا وديئُنا، لو

فهمنا ذلك لأحرقنا أعلام القرى، كما أحرقها من شبه الجزيرة العربية الملك عبد العزيز... رحمه الله!

16 ـ أنركبُ عليه جِمال العشيرة؟

لا أدري ألي أن أتساءل كم لنا معك، أيها التاريخ، من أملٍ وُلد كما يُولَد القمر ليبدد الظلام؟ أتساءل في عصرٍ قد شمرت فيه الأحداث عن سيقانها، وجاءت إلينا عدواً في الأرض وفي الفضاء، أسائلك عنها لأعرف رأيك فيها، إن كان لك رأي موثّق. فالعصر الذي نعيشه، نحن أهلك، ضنّ علينا بالأمان!!

أنا لا أعرف شيئاً غير التساؤلات مع الورق، أنْهَبُها من يدِ العمر قبل أن يذهب بي الأجل إلى التراب. تتلاعب بي الظنون والهواجس في كثير مما معك، ليته باقٍ لي جملي، وباقيةٌ لي خيمتي أو كوخي ونخلات وادينا!! ليتني لم أقرأ ولم أرَ منادي العصر تناديني أوراقه لتزرع لي، بدل نخلات أبي، الأوهامَ والشكوك والتضليل عن ذكريات كانت جميلة!!

أحسّ مشكلتي مع هذا العصر تتعقد وتخنق أنفاسي. كان جفني في اليوم البعيد يَقِظاً يقظةَ الإحساس بالجَمال الكوني، إلى أن جاء العصر بمفزعاته وقال لنا: القمر أحجار!! ولا أدري ماذا سيقوله غداً. لا أعرف، ولكني أخشى أن يهمّشنا في هذه الحياة، ويهمّشك معنا، ولا أدري ماذا نفعل؟ أنركبُ عليه جِمال العشيرة ونبارزه؟ وبماذا نُبارز سلطانَ العلم الذي حمل الإنسانَ إلى البعيد؟ ماذا معنا حتى نُحارب العقلَ الذي أقام في الفضاء اليوم قاعدةَ حرب النجوم؟ أنا خائفٌ أستعجِل

خطاي هارباً إليك، أيها التاريخ، لأسائلك عن غائبٍ لي: أين هو؟ ولماذا غاب أو غُيِّبَ وتركني، منذ آلاف السنين، أمشي وراء جملي أو ماعزي وأتلهَى عن دوري في هذه الحياة؟ أسائلك لماذا غفلتُ عن هذا الدور ونامت عنه مداركي، ولم يستيقظ فيَّ غير أعضاء هامشية الحاجات لبستني من التراب وستعود إليه؟

أُسائلك وألحّ في السؤال، إلى أن تتراجع عني أوهامي وتصورات غيّمت على عقلي وتفكيري!! أسائلك: أأنا هنا إنسانٌ مُفرَغٌ عقلي ومُفرَغةٌ مدركاتي من عطاء اللّه الذي نُشاهده اليوم يكشف أبعاداً كونية ويرتاد مجاهل الفضاء عند الإنسان الآخر؟ أسائلك: أهذا له وحده؟ وأننا، نحن العرب والمسلمين، ليس لنا إلاّ ما حمَلْتَه معك وسجّلته عنا؟ أتساءل لأني أشعر بالفجيعة، وأطالب بحقي الشرعي في عقلي الذي أهانه العصر اليوم باكتشافاته!! إني أحتج على كل مَنْ أهان العقل في التاريخ كله، ومَنْ قيّده بقيود ثقيلةٍ من فهمه السقيم. إني مُجادل بعقلي ووجداني دون حقي في دار الدنيا ودار الآخرة!! أقول ذلك، ولا أسيء الظن ولا أهين به عالِماً جليلاً اجتهد.

لا تفزع، أيها التاريخ، ولا تُكابر إذا سُرقت مني عنزي، أو أضاعها الراعي، قامت العشيرة وقعدت حتى تعود إليّ. فكيف بمن أهان عقلي وضلّلني عنه أزمنةً طويلة؟

نعم، سأعود إلى اللّه، ومعي الحديث المأثور الذي يقول: «أول ما خلق اللّهُ العقلَ فقال له: أقبِلْ فأقْبَلَ، ثم

قال له: أذبِز فأدْبَرَ، ثم قال اللّه، عزّ وجلّ: وعزّتي وجلالي ما خلقتُ خلقاً أكرم عليّ منكَ، بكَ آخذ وبكَ أُعطي وبكَ أثيب وبكَ أعاقب!». نعم هذا هو عدل اللّه في الجزاء والثواب.

وهناك، يا شيخي العزيز، التاريخ، سأقف كسيراً ذليلَ النفس أمام خالقي وأقول له: منذ كنتُ طفلاً صغيراً، والحياةُ والظروفُ والناسُ يدربونني على الخطو وراءهم، وما أكثر ما تراجعتُ عنهم بسرعة، وتركتُ لهم طريقهم التي يمشون عليها. وآخر ما مشيتُ وراءه هو تلك النداءات الكريمة لتفهُّم نعمة العقل، في مثل هذا الحديث المأثور وما جاء في القرآن الكريم عن العقل.

أسحب الخاطرات من آذانها إلى ورقي، وهنّ يتثاقلن تثاقلَ جفون البليد عن رؤية جَمال هذا الكون. ولا أدري، لماذا هنّ خائفات؟ فسجودهن للّه الواحد الأحد على الورق عبادة، ومنذا يستطيع أن يقول لمتعبد صادق: اخرج من محرابك، لا تتعبد؟!!

أنا، أيها التاريخ، أرى في أوراقي محراباً تتعبد فيه الخاطرات آمنة في محراب من محاريب اللّه، من كل إنسان لا يتعبّد ويزعجه أن يرى متعبّداً!! إذاً، ما الإنسان دون ورق، ودون سيرٍ لا يقف ولا يتراجع ولا يستريح وراء التساؤلات عن الضائعات له داخل نفسه أو خارجها من سوارح النفس أو سوارح الكون؟ ليس في الإنسان، ولا في هذا الكون طفيلي أو طفيلية علقا بفكرة الحياة والخَلْقِ البديع والعظيم، أبداً. فالعقل هو النور الذي

يهدي الإنسان إلى ما في الحياة من أسرار وطرق عبَدها سلطان اللّه، لتتجلّى الحكمة العظيمة في ما بين آفاق الإنسان وآفاق الكون. فالذين يخيفهم العقل، يجب أن يدركوا أن الذي يفسد الإنسان ويعاديه هو الشيطان، هو العدو الأول. أما العقل فهو نعمة من اللّه على الإنسان. والقرآن الكريم ما أكثر ما جاء فيه عن نعمة العقل: {أفلا تعقلون}!

نعم، هل أنا مؤاخَذ إذا تصوّرتُ وذهبتُ بعيداً في التصورات عن الإنسان؟ أسائلك، وخاطرة من خواطر النفس تقول لي: لا تسل! الجواب معي، الإنسان فضاء أوسع من هذا الفضاء الذي لا حدود له، لقد ارتدتُه لك، وعدتُ من ريادتي وليس معي منها غير خطوة واحدة، وإن قدّرت أنّ سرعتي في السير في فضائه أسرع من الضوء في مقاييس العلم اليوم، والسؤال الذي يجب أن تطوف حوله الأجوبة ولا تسأم التطواف هو: ماذا يحصل للإنسان ولهذا الكون لولا نعمةُ اللّه عليه بالعقل؟

تصوَّرْ ما شاء لك التصور، أيها التاريخ، وليتصوّرْ معك شيخنا الجليل وفقيهنا في التاريخ كله، كيف كشفت أحداث العصر شيئاً مِنْ سلطان اللّه بنعمة العقل؟ وحتى لا أُسرفَ في مساري هذا مع العقل وحده لا أسلم له القيادة المطلقة، فالجانب الروحي والإنساني ميزانه في فَلَك الإنسان حافظٌ للتوازن. وإذا طغى عليهم جميعاً جانب شيطاني كالذي يجري في هذا العصر أو جرى في

العصور القديمة من فجائع خلقية وبربرية فهي دموية الغرائز المتوحشة والشيطانية.

هكذا تملي عليّ خاطرةُ اللحظة، وهي واحدة من الخاطرات التي تُجادلها الأحداث داخل النفس، فتأتي معبّرةً بالقدر الذي تمليه عليها حائراتٌ مللنَ القيود فنزعن إلى السير فوق الورق.

والخطأ والصواب في مسار العقل والفكر مع الخاطرات لا يخفف عنهما الوِزر غير المقصود إلاّ: اللهم غفرانك، أستغفرك وأرجو رحمتك!!

17 ـ تعالوا نسامر التاريخ

ما أكثر ما افتُتنتُ بك ـ أيها التاريخ ـ وحملتك معي إلى قلب الصحراء، وهناك بنيت لك خيمة في جناح الوادي، وناديت على رعاة الغنم ثم رعاة الإبل أن تَعَالَوْا نُسامرِ التاريخ، ونقصَّ عليه شيئاً من سمرنا مع النجوم في هزيع الليل، فأوراقه خالية من أخبارنا، فهو تاريخ القصور والمدن والمذاهب والغزوات والترجمات والمدح والقدح، مرَّ على هذه الصحراء عابرَ سبيل على عجل، ولم يتريث في الوادي أو الروض أو الغدير ليتساءل عن منازل قيس وليلى، وعبلة وفارسها، وحاتم الطائي وبيته المضياف، ليته نزل ضيفاً عليه وسمع شيخ المعرّة وهو يُردِّد قوله:

المُوقدون بِنَجْدِ نارَ باديةٍ
لا يحضُرون وفَقْدُ العِزِّ في الحَضَرِ
إذا هما القطرُ شبثها عبيدُهمُ
تحتَ الغَمائِم للسارين بالقُطُرِ

وليته سمعه وهو يُردد:

ألاحَ، وقد رأى برقاً مُليحاً
سرى، فأتى الحمى نِضْواً طليحاً
كما أغضى الفتى ليذوق غمضاً
فصادف جفنه جفناً قريحاً
أقول لصاحبي إذْ هامَ وَجْداً
ببرقٍ ليس يُثبته نُزوحاً

وهاجتْهُ الجَنوبُ لوصلِ حيّ
أقامَ، ويمموا داراً طَرُوحاً
سَفاه لوعةُ النجديّ لما
تنسّم من حِيَالِ الشام ريحاً
وغيٌّ لمحُ عينِك شَطرَ نَجدِ
إذا ما آنست برقاً لَموحاً

بدوي من رعاة الإبل ربما أخذته إلى معرة النعمان فلسفةُ الشيخ، فلما لاح له بارقٌ تذكر أودية نجد وشعابها فحزم أمره على الرحيل، فعاتبه الشيخ بقصيدة أوردنا منها هذه الأبيات.

ولا أدري، أيها التاريخ، ماذا عندك عن هذا العربي النجدي؟ وما الذي نزع به إلى معرة النعمان؟ ماذا تظن؟ أهو معجَب بفلسفة شيخ المعرّة، فأراد أن يكون أحد تلاميذه؟ أم أرسلته نجد ليشكر شيخ المعرّة على شهادته لها بمكارم الأخلاق؟ لا أدري، ولكني أتصور أبعاداً لرحلة النجدي في تلك الأيام البعيدة. وها أنتذا، أيها التاريخ، اليوم معي في منازله ومنازل عروة بن الورد ورفاقه، ماذا أقول لك عن هذه المنازل وأهلها؟ الجواب ليس معي، هو نائم في تلاع الوادي على أحلام جميلة عانقت النجوم وذرفت دمع بنات الحي على وجه القمر.

أكتب خاطراتي إليك، من منازل شيخ العشيرة، ماذا لو قصصتُ عليك شيئاً عن مكارم أخلاقه؟ ماذا عنه، وحضارة العصر اليومَ تقوّضُ خيامه، أبقيَ من يذكره

بالخير؟ لا أعرف، ولكن لأني من بقايا قومه، ذهبتُ إلى منازله وناديتُ على أيامه: أن تعالَي إلى ورقي وأملي عليها آخر ذكرى عنه، ماذا قال يوم قال له العصر:

ودّعْ هريرةَ إن الركبَ مُرتحلُ

وهل تُطيقَ وداعاً أيُّها الرَجُلُ؟

قال هذا، وقالت سُنن الخالق: لن تكون رحلة لا عودة منها. فمشارف الطريق الطويلة، أيها التاريخ، خطّ عدل اللّه على جنباتها: إن من قوّض خيامه بالأمس لن يقف على الأطلال يذرف الدمع ويبكي بكاء الحزينات، أبداً. تواصلت الرحلة على الطريق الشاقة والوعرة، ولكننا ما قرأنا كل ما كُتب على جنبات الوادي، وما كُتب شيء رهيب، فهل لي أن أتساءل، أيها التاريخ، لماذا لم نره في أوراقك؟؟ أأنت الملوم، أم مؤرخ الوادي، وادي حنيفة؟ فالمخاض الذي تفجّر في أرضه، ماذا تظن، أيها التاريخ، ويظنّ مؤرخ الوادي مدى صداه في العالم، وعند عتاة منظّري المذهب المادي الإلحادي؟ فقد عبّروا عن توجّسهم ومخاوفهم من ذلك الصوت الكريم وخطورته عليهم في رسالة جاءت بها إليّ واحدة من الصُدَف تقول لي: هؤلاء أنتم، هذه ثورتكم وصداها في نفوسنا، وهم من هم في الضلال!! إنهما «إنجلز» و«كارل ماركس». فقد كتب إنجلز الرسالة الآتية بتاريخ (26 أيار/مايو 1853م = 1270هـ) قال فيها:

عزيزي كارل: إن قدرة ابن الجنوب الأقصى مثل أية حركة دينية كانت من الناحية الشكلية والظاهرية، ردّ

فعل وعودة إلى البساطة وإلى القيم، إلاّ أن محتوى هذه الثورة (الوهابية) لا يمكن تلخيصه بالتفسير الجديد للعقائد القرآنية المحمدية السلفية، بقدر ما يتمثل في توحيد العرب. هذا الثعلب الصحراوي، يا صديقي كارل، قد بدأ دينياً وانتهى سياسياً [5]، إنه في الظاهر يحمل مشاعر الورع والزهد الديني، ولكنه في الواقع يحمل مشعل الطموح السياسي الكبير المتمثل في إنشاء دولة عربية كبيرة تدين بتعاليمه. إنه خطر على أفكارنا وتطبيقاتنا[6]!!

وهكذا نرى دعوة الدرعية في هذه الرسالة، كيف هي في فلسفة منظّري المذهب المادي، وكيف رأوها وقيّموها ومدى خطورتها على فلسفتهم الإلحادية.

سؤال حائر يقف أمامنا، نحن أهل هذه الدعوة التاريخية التي قامت على وعي لرسالتها الإنسانية، ماذا تعرفون عني وعما كان لي في التاريخ؟ ألا يمكن أن نقول له إن التاريخ يعيد نفسه، وقد عاد، ومعه الجواب، فلنقرأ شيئاً مما أملاه ساري الليل، وكيف هتف له الصباح. فالشاب عبد العزيز هو وريث تلك الدعوة التي تُقرئنا في رسالة إنجلز إلى ماركس، مدى خطورة ذلك الركب التاريخي الذي طرق أبواب البلاد العربية ينادي: إني أخوكم، إني آتٍ إليكم لأقول لكم: إن مكانكم التاريخي والإنساني شاغر اليوم، لأقول لكم: إن من قطّع أوصالكم، وقطّع أرحامكم هو عدوكم وعدوّي. ربما كان ما في هاجس قائد هذا الركب الإمام سعود الأول

هو ما في هاجس وريثه عبد العزيز، رحمهما اللّه. ربما قدّر قائد هذا الركب الذي قال عنه إنجلز إنهُ ثعلب صحراوي، مدى خطورة هذه الظاهرة الإلحادية الجديدة على العالم، وخصوصاً العالم العربي والإسلامي، فأعطى كل ما يملك، أعطى نفسه وأعطى دمه وروحه فداءً لعزّ العرب والمسلمين ووحدتهم، فلم يفهمه عالمه آنذاك، بل وربما إلى يومنا هذا لا يفهمه أحد في العالم العربي والإسلامي، ولم ندخله جامعاتنا على مفهوم أهل هذه الوثيقة التاريخية وعُتاتها!!

فعبد العزيز الشاب ثم الملك أجاب عمن قال: «وهل تطيق وداعاً أيها الرجل»: إني لا أطيق الوداع، فالتاريخ تاريخي والمبدأ مبدئي، والرسالة هي الرسالة، إلاّ أن الزمان والمكان والظرف غيرهم بالأمس.

ولا أعرف، أيها التاريخ، ماذا ستُدخل أوراقك، والأيام غير الأيام، والعصر غير العصر؟ أتساءل، والطريق شاقة على قلمك. إني أخشى عليك من روّاد الفضاء، أخشى أن تقوّض خيامَك المفاهيمُ السقيمة. والخشية هنا أمنيات تتكئ عليها شيخوخة أضنتها الأيام، ولم يبقَ لها غير تذكُّر ذلك الماضي، وحياة عشناها هي ما بقي لنا في الذاكرة.

5. نعم، انتهت به عقيدته السمحاء إلى السياسة الشرعية في معتقده.

6. من كتاب ماركس وإنجلز المؤلفات ترجمة الطبعة الروسية الثانية، مج 68، ص: 210.

أأترك أحلام اليقظة تحلم لي في هذه الخاطرة؟ أللحلم قَدَمٌ يمشي عليها؟ لا أدري، فالخاطرات الآن تزدحم على أوراقي بالمناكب. ساقٌ تنافس ساقاً إلى الورق، ولا أعرف أأطلق لهن حرية العَدو دون قيد؟ فما خلط الأوراق في عالمنا الكبير غير تزاحم الساق بالساق!!

ومشكلتي مع الخاطرات أنهن غير محتشمات، سيقانهن عاريات، ولا أعرف هل سيقبلن بالاحتشام لو أمرتهن؟؟

وخاطرة تأتي ماشية في خيلاء وتبذَّل إلى الأوراق مشمرة عن ساقها، أأكسرها حتى لا خطو ولا ورق؟ لا أعرف، لماذا شمَّرت الخاطراتُ عن سيقانها عند الآخرين ورُحن إلى الفضاء، وسيقان الخاطرات عندنا، نحن العرب، يتسكعن على التراب؟ لماذا لا يعرفن الفضاء ولا يفكرن فيه؟ حائر، منذا يبدَد حَيرته؟ كل من قابله رفع له شعاره وناداه: إلى مذهبي!! إلى ضياعي!!

نعم، ما أثقلَ القلم في يدي!! كل شيء عندي ومن حولي متكوّر على عقلي وفهمي. ولا أدري، أأنا داخل المكان والزمان أم خارجه؟؟ كل شيء عندي مُفرغٌ، تعطّل الخيال وغابت الذاكرة. فلولا أن ابنة الحي الذاتي اعترضتني وأخذت بيدي وقالت: اتكئ على عاتقي وتعال معي أدرّبك على الخطو، لفقدتُ كل شيء حتى

نفسي!! سألتها أفي استطاعتي أن أمشي، والشيخوخة وعصاي هما ما بقي معي من ذكريات الأيام البعيدة؟ أجابت: خطوة واحدة تخطوها نادماً على أيام كانت ملهاة لك عن نفسك وعن أمانتك، قد توصلك إلى رحمة اللّه. سألتها: وأهلي العرب والمسلمون؟ نظرت إليّ ثم قالت: من تعني؟ عرب اليوم أو عرب الأمس؟ قلت لها: أعني عرب اليوم.

حارت في الجواب، ثم قالت: ادعُ اللّه لهم ألاّ يكونوا هملاً في بيداء الزمن تنهشهم الذئاب والكلاب!!

بعدها أوقفتني أمام نفسي وأيامي ثم قالت: كيف ترى نفسك؟ وكيف ترى العتاب لهذه النفس لو عاتبتَها؟ قلت لها: اليوم قد لا ينفع العتاب! ولكني سأرثيها بدموع غزار، ولا أدري أأنا وحدي، عزيزتي، من أضاع وقته وعمره ونفسه وراء توافه الحياة؟ قالت: لا، قلت: ما السبب؟ قالت: لأنكم غثاء كغثاء السيل، ثم أحالتني إليك، أيها التاريخ، في ضجر كضجر العصر، وسأم كسأمه، وقالت: سائِلُه ماذا معه؟ وماذا يعرف عن هذا العصر؟ أسيدخل ميدان المنافسة معه؟ قلت: لا تقسي عليّ، عزيزتي، فأنا شيخ مسنّ، أيامي لم تكن من أيامك، أيامي أيام الجمل والخيمة والصحراء. تشاغلت عني بالجواب لحظات، ثم قالت: تعال آخذك إلى جامعات قومك العرب ومدارسهم لتردد مع شاعر الجامعة قوله:

ودَخَلْتُها جاهلاً مُتواضعاً

وخرجتُ منها جاهلاً مغروراً

فقلت لها: هذا قول شاعر قد يكون غاضباً على جامعته، وليت أكثر من يغضب يرد غضبه إلى نفسه ويهجوها، فقد تكون هي الفاشلة وليست الجامعة!! ما أكثر ما فجعتنا الملامات وأدمت قلوبنا وأحرقت أكبادنا! فذكرياتي عن الملامات ليتني أستطيع اليوم أن أذهب إلى الصحراء وأبني خيمتي هناك ثم أنادي عليهن واحدة واحدة لأتعرف إليهن، ومن أية قبيلة من قبائل الغجر والفشل أتين؟ وماذا يمكن أن نحصل عليه لو استجبنا لهذه الملامات؟ لا شيء، ملاماتٌ لا هوية لها غير الضياع، فلتزحزخها إرادة الماشين إلى منازل الغيث مَنْ خالوا السحب ثم رحلوا إليها! فالمدلجات من الأفكار في هذه الحياة مَنْ لم تقف لهن قدم هنّ اللواتي حققن الانتصارات على كسالى الذهن العاجزين.

ما أكثر من أوقفني في طريقي مع الأمل وقال لي: تعال معي لنتظلل بظلال «الاتكال» فقلتُ له: وماذا بعد الاتكال؟ قال: لا تُتعبْ نفسك، ما كان لك يأتيك. فقلت له: أي أعطّل كل شيء وأقعد معك في انتظار مجيء فلسفتك إليّ، ومعها ثمرة الشجرة التي زرعها غيري؟ سأعقلها وأتكل، ثم أمشي إلى ما كان لي في أقدار اللّه.

أخذتْ ملامات صديقي القديم تتتابعُ عليّ في أشكال من النقد فما زادتني غير بُعدٍ عنه وعن فلسفته، التي جلس متكئاً عليها إلى أن أصابته الشيخوخة وشعر بالندم، فقد فوّت عليه العجزُ والكسلُ الذهني غَرْسَ شجرة واحدة يتظلل بها ويقتات منها.

زرته في آخر أيامه وسألته كيف حالك؟ وماذا أنت عليه؟ فقال لي: كما ترى لقد أخطأت خطأً كبيراً في حقّ نفسي وخالفتُ باتكاليتي سُنن اللّه بالجلوس في زاوية من الزوايا الخاملة، ولم أدرِ أن كل ما في هذا الكون السعيُ إليه، فكراً وقدماً، هدفُ الحياة والإنسان. شاهدتُ ذلك حتى في الطير الصغير يخرج مبكراً من عشّه ليسترزق خالقه قُوت يومه.

حاولت أن أعزّيه وأقول له: لعلك خسرت أشياء وربحت شيئاً مع اللّه... فرد عليّ قائلاً: لعلّ الكادحين والضاربين في الأرض هم العُبّاد، وهم الذين يحققون شيئاً من حكمة لم يبقَ لي غير أن أبشر بالعمل وأنصح وأقول لكل الكسالى والقاعدين في زوايا الترهّل والعجز: خذوني عبرة لكم، لا دخلَ لي غير ما تمده لي الأيدي من صَدَقة وإحسان، أضعت شبابي وقُوَّتي فجاء يوم الندم!

ولنستحضر في هذه المناسبة الحديث الشريف «لئن يأخذ أحدكم أُحبُلَهُ فيتحطب، خيرٌ له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه!!».

19 ـ أجهدَتني الخاطرات مثلما أجهدَتني التساؤلات

في خاطرتي هذه لا أحكي لك ـ أيها التاريخ ـ عن مغيبات، فأنا لستُ من ناثري الودع، ولا مشعوذاً يتلاعب بعقول البسطاء. أنا رجلٌ درَّبتني عقيدة التوحيد على أن أعبر طريقي في الحياة يقظَ العين والقدم، فالحفر والصخور الجاثية في طريق الإنسان هي مشكلته مع الخير والشر!!

مسؤوليتي من هذا كله قائم عليّ فيها عدل اللّه، فمجيئي إلى هذه الحياة لم يكن سببه نزوة من نزوات الغريزة، أبداً، ولكنها حكمة عظيمة أرادت للإنسان أن يخوض معركة شاقة أشفقت منها النجوم والكواكب والشموس والأقمار، فحملها الإنسان.

هكذا درجت بي الحياة، أتأمل في نفسي وفي ما هو خارج هذه النفس، بقيتُ طفلاً أحبو في تأملاتي أخطو خطوة واحدة ثم أسقط على وجهي عاجزاً عن الاعتدال والوقوف أمام هواجس وظنون وتساؤلات وباكيات وباكين داخل نفسي، أجهلهم ولكني أحسَهم يحاولون أن يأخذوا بيدي ويحموني من السقوط. إلاّ أن الحركة بطيئة، متثاقلة خطاها لأن الطريق غير معبدة، والهادي إليها لا يستجيب على عجل، يُريد أن يدخلني معركة الصراع والامتحان مع الحفر والصخور الجاثية، مع الغموض، مع الضباب، مع القفر الموحش، مع الكدح، مع

الطفولة العقلية، مع الناس، مع مراحل العمر، وما لهذه المراحل من متطلبات جسدية وروحية.

وهذه هي أشق ما مررتُ به في حياتي، وناجزتني فيها معركة الصراع الجسدي والروحي والخلقي والضعف البشري، حين أتذكر يومها البعيد، وعمري خمسة عشر عاماً، وتحضرني ذكراها، بكل ما فيها من إيجابي وسلبي، وأمشي وراء هذه الذكريات تعد لي الخطى، وما في الذات يومها من صراع رهيب. تتساءل عندي الشيخوخة الآن عن عظمة التوحيد وجلال المغفرة لمن أرادها وبكى ندماً تحت منبرها العظيم. نعم، تتساءل في تذلل وخضوع وسجود: ألهذه الرحمة بالإنسان المسكين المعذَّب بُغدّ عنه؟ أبداً، إنها رحمة تلازم حياتنا، نحن البشر، ومتى وقف بنا الندم على حافة اليأس قالت لنا رحمة اللّه: إني معكم، أحَنُّ عليكم من الأم على وحيدها، أستشعر ذلك من قوله تعالى: {قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة اللّه، إن اللّه يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم}، كما أستشعرها من الحديث الشريف الذي رأى فيه الرسول ((ص)) امرأة تحتضن طفلها خوفاً عليه من السقوط حيث قال ((ص)) لأصحابه بما معناه: أيتصور أحد منكم أن ترمي هذه المرأة طفلها في النار؟ فقالوا: لا، يا رسول اللّه، فقال نبي الرحمة: ما عند هذه المرأة هو جزء من مئة جزء من رحمة اللّه.

لا أدري كيف أخذتني هذه الخاطرة إلى أوراقك ـ أيها التاريخ ـ وبهذا الشكل، ولكني يوم أتذكر ويوم أبكي على ما أتذكره، ثم أنهض من فراشي، لا أفزع إلى مخلوق أستنجد به، فرحمة اللّه إليها المفزع.

لا أبكي الآن بين الأشجار في وادي قريتي بكاءَ الثكلى على وحيدها، أبداً. فالبكاء، وإن كان فيه راحة للنفس، لا أسفحه دمعاً ساخناً على شيخوخة تتكئ على عصاها، وأقول هذا هو الندم. سأبكي داخل نفسي بكاءَ هذه النخلات على أيام كانت فيها حمامة الدوح تُغرد شجناً وفرحاً على سعفاتها. تبدلت الحياة في كل شيء، وأخذت سبيلاً غير سبيل الفرح. هي اليوم تغرس أشجاراً في الإنسان غير أشجار الماضي، هي اليوم تُحاول أن تُخرج الإنسان من مسجده وتلقيه في الشارع العام لاهثاً وراء مجهولٍ لا يُعرف له نَسَبٌ ولا عشيرة في تاريخنا ـ نحن العرب ـ.

ذكرياتي مع قبيلتي في الصحراء العربية، صحراء امرئ القيس وفارس عبلة، هي الباقية لي اليوم، أتسلى بها في هزيع الليل، كلما ضايقتني الهموم، وأرَّقني العصر وأهله.

لا تظنَّ، أيها التاريخ، بي الظنون. أنا رجل من الماضي، فما تحمله في أوراقك عايشتُه كثيراً داخل نفسي، تعايشتُ معه وبلوته وأخذتُ منه ورفضت، فإذا كنتَ اليوم غريباً، فغربتي أشدّ من غربتك، أنا وحيد، وإن كنتُ مع الأولاد والأهل والأصحاب، وإن كنت مع

الجماعة. أما أنت فمعك الأزمنة، ومعك الناس، والفعل وردوده، معك الأصالة ومعك الدين ومعك القيم ومعك الطفيلي على الحياة والطفيليات. إلاّ أني أخاف عليك من عصر غزو الفضاء، أخاف أن يتعالى عليك وأن يقول لك: أبلغ عني امرأ القيس وكثيّر عزّة وجميل بثينة وعروة بن الورد ومجنون ليلى، أخبر كل العشاق، كل الذين تسللوا من خيامهم أو من أكواخهم ليبثّوا قمر السماء شكواهم وحرقتهم، أني قد قبضت على القمر ولم أُبقِ لهم فيه ذكرى.

قد يقول لك هذا الإنسان الذي هبط على القمر وأخذ يرصد النجوم على أمل رحلات متتابعة: ألأحد الحق في أن يطاولني أو أن يدّعي لنفسه موهبة غير موهبتي؟ عسى أن تقول له إذا قال هذا: خفِّفْ من غلوائك واحنِ رقبتك إلى التراب، فلستَ الخالق ولست الصانع ولست المبدع!! أنت جهاز مسيَّر بقدرة اللّه، قمتَ برحلة من سلطانه وعلمه لتعبّر بالمقدار، الذي مُنح لك، عن شيء من رسالة الإنسان على هذه الأرض، ولكنك لم تفِ بواجبك الإنساني والروحي، ولم يلازم هذه الرحلات منك رحلاتٌ روحية وخلقية، أنت عائد إلى اللّه ليجازيَك ويحاسبَك.

من يدري كيف النهاية؟ وعلى أية شاكلة ومن أي أفق تظهر وتأتي؟ كل شيء مصون ومحروس لا يصل إليه مسافر منّا، نحن البشر، ثم يعود إلينا بالخبر.

لي عشرات السنين وأنا أكابد تأملاتي في نفسي وما عندي من حركة، وما تُثير هذه الحركة من تساؤلات، ولكن كل شيء يذهب مني في تساؤل لا يعود ومعه الجواب... حلقات مفرَغة لا يملؤها غير الأمل برحمة اللّه!

يتراءى لي أن الإنسان كثيراً ما يُصفّق لنفسه ويهتف لها، ثم يُدني أوراقه ليكتب للناس شيئاً عن حياته، ظنّاً منه أن صفوفاً من البشر واقفة على الطرقات في انتظار مجيئه في تجربة أو ترجمة نافقته من قلم منافق... نعم، فكرتُ أن أكتب شيئاً من ذلك، فلحقت بي الخاطرة وقالت لي: تراجغ!! فالتاريخ هو تجربة الإنسانية، فيه قيامها وقعودها، هل اعتبر به أحد؟ هل وعاه إنسان مرّ بخرائب قرطبة والحمراء؟ ومرّ بدمشق الأموية وبغداد الرشيد وقاهرة المعزّ؟ ورأى كيف تقوم الدول وتسقط في عالمنا الذي لنا، نحن العرب والمسلمين؟؟ ألْقِ على أوراقك ما يعنيك وأسقطه ورقاً ذابلاً من شجرتك التي ذبلت، وخُذ من نفسك لنفسك شاهداً على أن الإنسان ليس نسخة كتبها فيلسوف ووضع لها تفسيرات وهوامش وقال: هذا هو الإنسان، أبداً، فمن حكمة اللّه وقدرته أن أرانا عظمة هذا الخلق العظيم الذي لا يلتقي فيه إنسان مع آخر بشكل مطلق، بل لكل تفكيره وصورته التي لا تلتقي مع صورة أخرى، حتى البنان صار له في هذا العصر دور كبير في تحديد الشخصية، مصداقاً لقوله تعالى {بلى قادرين على أن نسوي بنانه}.

وما اتسع الخُلف بين البشر إلاّ لسعة المساحة والمعنى بين إنسان وآخر. إذاً، دع لكل إنسان تجربته وممارسته الخاصة، ونجاحه فيها وفشله.

هكذا أجادل ذاتي وتجادلني في عتابٍ لا تملّه الأوراق، ولا تسكته خاطرةٌ من خواطر النفس إلى أن تغادر الروح قفصها.

20 ـ لماذا توَّر ث جنكيز العصر

ميراثَ جنكيز خان؟

لماذا ـ أيها التاريخ ـ تحمل إلى الإنسان أفعال الإنسان الرديئة؟ لماذا تكابد حمل محرق روما وقاتل سعيد بن جبير بسيفه؟ لماذا لا تترك معارك السفهاء والظَّلمة مجندلة للطيور الكاسرة؟ لماذا تحملها وتحمل سِيَرَ الفاسقين والكذَّابين والمعتَّمين على نور الفضيلة؟ لماذا تسلمها من جيل إلى جيل؟ لماذا تورِّث جنكيز العصر ميراثَ جنكيز خان؟

لا أتساءل وحدي، فالدروب واقفات عليها تساؤلات حائرة فيك حيرتي. لا أعرف أأنت شاعر وظيفته القدح والمدح؟ بالأمس أقْرأتني شيئاً رهيباً أبى عقلي أن يصدَقه، رأيتك تقص علينا أخباراً خارجة على العقيدة، وعلى العروبة، ولا أدري كيف أفسر نقل مثل هذه الأخبار، مَن كلَّفك بذلك؟ مَنْ أخبرك؟ خليفةٌ من بني العباس ينبش قبور بني أمية ويُسرف في جلدها وإهانتها، إلى آخر القصص المهين!!

ألا تتصور أنك بهذا أعطيت لورثته في العواصم العربية، وفي العالم كله، فتوى وتبريراً لكل عمل شنيع؟ قد تقول: أردتُ بذلك أن أقدَم الإنسانَ السيّئ لتراه البشرية وتقذفه بالحجارة، كلما مرت عليه، كما تُقذف الخاطئة، ولكن هل قذفته؟ أبداً، بل أخذته مثلاً لها! وإن لم يكن حقيقة.

ألا يمكن أن تنتحل لنفسك عذراً غير هذا؟ لماذا لا تقول لنا: إن الذين أناخوني وظلّوا يحتطبون من هوامش الأفعال أردأ ما في الوادي العربي ويحطونه على ظهري دون خيار لي، هم الأقوياء والمنافقون؟ قد تقول لنا، نحن قراءك: مسؤوليتكم من كل ما معي وما أحمله هي مسؤولية العقل فيكم والفكر والنضج الثقافي وصحة الفهم... أنا مُثعَب، فخلخلوا هذا البنيان الذي تجاورت فيه الفضيلة مع الرذيلة، والفعل الجميل مع الفعل القبيح، وأنزلوا من فوق ظهري كل ما كان قبيحاً وسلطوا عليه عقولكم ونقدكم!! وإذا لم تفعلوا هذا فالوادي القديم الذي كدّس على ظهري ما فيه من أخشاب يابسة لا يزال واديكم وأنتم أهله، ما تغير شيء. خيامكم فيه خيامهم، ومنازلكم منازلهم، ولكني لا أتصور أن العصر يقبل بكم رفقاءَ درب، سيرفضكم ويرفض واديكم، إذا لم تصححوا المسار، ولا تؤذوا الحقيقة أو تهينوها بالنفاق والتزوير، وجعل الأبيض أسودَ، والأسود أبيضَ، والقزم عملاقاً، والعملاق قزماً. راجعوا أنفسكم قبل أن تخلعكم الحقيقة ويخلعكم العصر! سلاح الرعب بين عواصمكم زرعته الصهيونية العالمية!!

نعم، لا أعرف ماذا سيكتب المؤرِّخ العربي اليوم عن أحداث جسام، طعناتها مميتة في الوادي العربي الكبير؟ ماذا عسى أن يقول عن الشعارات التي رُفعت ثم احترقت؟ ماذا سيقول عن تحويل معارك الكلام

والسلاح والجوع والعري في الوطن العربي إلى مدنه وقراه وقتل إنسانه روحاً وفكراً وجسداً؟ لا أدري ماذا سيقول عن حرب الخليج وعن الساحة الواسعة التي تحركت فيها هذه الحروب؟ ماذا سيقول عن موت الحياة في مياهه؟ ماذا سيقول عن حريق النفط؟ ماذا سيقول عن مجلس الأمن وهيئة الأمم؟ ماذا سيقول عن الجامعة العربية والمنظمات الإسلامية؟

قد تأتي الرمال والأودية والشعاب والجبال، قد يأتي عنترة العبسي ومعه عبلة، وقد يأتي حاتم الكرم، ويأتي امرؤ القيس، وتأتي زرقاء اليمامة، وتأتي بطحاء مكة ومنازل الوحي ويأتي الصعاليك ويأتي الملك عبد العزيز، وتأتي الدرعية، يسائلونك جميعاً، ما الخبر؟ لا أدري، ولكنه في أوراق المؤرخ الأمين!! لا نعرف، أيها التاريخ، أبقي لك دور مع القلم وحامله؟ أم أن العصر أوقفك خارج الأحداث ومياهها وأبعادها في الأرض وفي الفضاء، وقال لك: هل ما ستكتبه سيكون من نوع ما على ظهرك؟ هل تستطيع أن تحمله؟ وإذا حملته، وكان الذي كتبه مزوِّراً ومنافقاً ومرتشياً أو خائناً، هل سيقرأه أحد؟ هل ستصدقه الأجيال الآتية؟ لا أتصور، فقارئ المستقبل غير قارئ الأمس!!

تنبّه، أيها التاريخ، وقل لمن يلملم فضلات عقله ونفاقه: لا تُحمّلني هذه البضاعة الرديئة، لن أجد لها قارئاً واحداً!! فأنا لم أكن جملك، أنا واحد من جِمال العصر، الكاتب والمؤرخ الذي يكتب لي ليس أنت، فقد

خلَفك العصر. لم يعد هناك من يمد لك الرشى، كُفَّ يدك أيها المتسوّل وابتلع لعابك، احقن به قلمك الفاسق، فقد لا تجد ورقة بيضاء تستقبله، وإن لمَعتَها بالشعارات أو الرشى فستستعصي عليك!

أيها التاريخ، ما أعظم رسالتك في الحياة!! فأنت الجَمل الذي لم يملَّ الرحلة ولم تُضْنِهِ، وإن كانت مسافتها آلاف السنين أو ملاييينها سيراً على الأقدام. لا ينكر دورك ويلملم على ظهرك فجور الغرائز البشعة غيرُ لقيط من لقطاء التاريخ، إذا فتح كتابه الذاتي لا يجد بينك وبينه نَسَباً، فمكارمُ الأخلاق التي معك لا يجدُها في كتابه، وكذا النفس جميلة الفعل. كلما قرأ ما معك من مكارم الأخلاق يكرهك وينكرك ويودّ لو يصوغك على شاكلته، ويرسله شعاراً يضلّل به المتعبين والبسطاء من البشر!

لا أحمل على ذمتي اعتراضك وقذفك، فالقذف في شريعتنا محرَّم وله عقوبة وجزاء... إذا لم أتورع عن قذفك فسيعترضني الجَلد وَفْق الشريعة. ولكني سأشير إلى القبيح والرديء والطغاة وكل ما ليس بفاضل أو إنساني معك. سأحاول أن أستضيفك، إذا لم تستعصِ عليّ، في بيتي، لأتعرّف إليك، وأداعب مسامعك في كل خاطرة آتية إليك!

21 ـ تحرسه أضلاع المجهول

لا أدري ـ أيها التاريخ ـ هل أذن لك كسرى وقيصر في هذا العالم بدخول قصريهما والإصغاء إلى ما يدور داخلهما؟ أم أنك منفيّ خارج القصرين، ولا يُسمَح لك بالدخول إليهما عبر الزمان؟ هذا ما يتساءل عنه كل من يرى الأحداث والغِيَر تُقيم البنيان وتعلي شرفاته، فترةً من الزمن، في حضارة هنا أو هناك، ثم يسرع إليها الفناء. فإذا ما في داخل القصر من أحلام جميلة وجميلات صار إلى كوابيس وظلام دامس!! فيسرع إليه كاتب التاريخ يلتقط الأخبار: كيف كان هذا، وما السبب في سقوط صروح شامخة؟ فيأتي الجواب متسللاً من أعماق الخرائب: الجزاء من جنس العمل! فالقصر الذي تراه أنقاضاً أغلقه صاحبُه عن عِبرة واحدة من عِبَر التاريخ دونَها، وبقيت أقدار اللّه داخل القصر ترصد أفعاله، وتوقّت لتداعيه، ليكون من أنقاضه عِبرةٌ لربّ قصر آخر ودولة أخرى... وهكذا. ولكن ما أقلّ من اعتبر!

يتراءى لي أن الأنقاض والخرائب لقصر من القصور ليست وحدها التي يجب أن يقف أمامها كاتب التاريخ، ليسجل لنا الواقع فحسب، فالعبرة ليست في تداعي الأطيان والأحجار، ولكنها في تداعي الغرائز والجوارح والأيدي الظالمة، وغياب العقل في غربة عن قيادة معركة الحق والعدل. فما تداعت هذه وصارت إلى خرائب إلاّ لتداعي أخلاق ربّ القصر، حتى صار إلى

خربة من خرائب التاريخ، وما خرائب الطين والأحجار إلاّ شاهد على ذلك!!

هكذا أبحرتْ بي قراءاتي في أواراقك، وراحت بعيداً وراء قوافل من المتناقضات، فلم أصدّق كل ما سمعتْه أذناي ورأتْه عيناي. قدّرتُ أني أعيش الوهم فتساءلتُ كثيراً: أهذا الذي يجري في العالم اليوم حقيقة؟ أم أن الوهم تسلّط عليّ فأبحث عن مدرسة نفسية تُساعدني على الخلاص من الأوهام؟ ذهبت إلى إحدى هذه المدارس في بلدٍ عربي وحين قابلت صاحب المدرسة، وكان رجلاً مُسناً وقوراً، أذهلني مرآه قبل أن أتحدث إليه أو يتحدث إليّ. قدّرتُ أني أمام تجربة إنسانية غنيّة. سألني: من أي البلاد العربية أنت؟ قلتُ: من قرية في قلب صحراء نجد. قال: نجد بلد الشعراء والفروسية والكرم؟ قلتُ له: يا أستاذ، أتعرف شيئاً عن نجد؟ قال: منذا يجهل فارس عبلة؟ منذا يجهل حاتم الطائي؟ منذا يجهل قيساً وليلى؟ منذا يجهل امرأ القيس؟ منذا يجهل الملك عبد العزيز؟؟ منذا يجهل أن أرض نجد تهفو إليها قلوب الملايين من العرب؟ فهي رمز تاريخي للفطرة العربية الأصيلة. رأينا الخيال يزورُها في عدد كبير من الشعراء العرب وحتى الغربيين.

آنسني حديثه، ورغبتُ في أن يستمر، وأن أؤجل ما جئتُ من أجله إلى غد، لكنه قاطعني متسائلاً: ممَّ تشكو؟ قلت له: ليس بي علة عضوية، وقد زرتُ كثيراً من أطباء العلل الجسدية فقالوا لي: إنني أتمتع بصحة

جيدة. سألني: هل تقرأ وتكتب؟ فقلت له: شيئاً بسيطاً. فجيلي الذي أنا منه لا يوجد فيه مدرسة، فالمدارس والجامعات جاءت مع النفط. سألني: هل تحب المعرفة؟ قلتُ له: أكره الجهل، وربما أن ما زرتك من أجله لم يسببه لي غير الجهل. لو كان عندي معرفة لما زرتك، لخلصتني المعرفة من الحيرة والوهم. قال حدّثني وأفرِغ كلَّ ما لديك من شحنات نفسية. حدثته طويلاً. لم أترك شاردة ولا واردة في حياتي فعلاً أو هاجساً أو فكرة أو ميولاً إلاَّ قلتها بصدق وأمانة.

ارتاح لي الأستاذ، رحمه اللّه، فصار يوليني رعاية وعناية واحتراماً. طبعاً المدارس النفسية تختلف باختلاف مذاهبها، ومن حظّي أني تعرفت إلى مدرسة لا تدّعي أنها من خوارق الطبيعة، أبداً، مدرسة تكره الإلحاد، وتنهى عن الإسراف في كل شيء.

أوحى إلي هذا الأستاذ بما فتح لي على نفسي كوّة صغيرة أضاءت لي من خلالها شيئاً مما كان مُعتماً. وفي لحظة الفراق، أوقفني وقال لي: لم أفعل شيئاً، سوى أني ساعدتك على أن ترتاد نفسك من خلال كل خفقة من خفقاتها، وأن تتعامل معها في حالة من التصالح، فأخطر الأخطار على الإنسان أن يتسلّط عليه الوهم الذي يولّد الخوف ويولّد الإسراف في تضخيم المشكلة. أوصيك أن تقرأ التاريخ، وأن تقف عند كل ما يلفت نظرك، وتسجّل كل نبضة إيجابية أو سلبية، ثم تقف عندها وتتأمل فيها في محاكاة عقلية ووجدانية،

وأنبهك إلى أن الخوف له دور في حياة الإنسان، دورٌ يبنيه ويُحافظ عليه من الخطأ ومن الزلل، وهذا نعمة من اللَّه تقيه مَواطنَ الخطر، وإذا اختل هذا المفهوم وتغلب السلبي على الإيجابي، صار إلى خوف مرعب، وإلى قلقٍ وسأم وضجر لا يبقى معه أمن ذاتي أو سعادة. اقرأ التاريخ واعتبر وتعلم منه، فهو سِفْر الحياة ورسالة الإنسان إليك... وهو أوسع من المدارس والجامعات!

قرأت شيئاً منك ـ أيها التاريخ ـ ولم أكن مهتماً بما فيك من معارك وانتصارات ودم مسفوح على التراب، لم أكن مهتماً بمدح هذا أو قدحه، بل توجهت في قراءاتي لك إلى الإنسان ذاته، أتأمل فيه وفي ما له من آثار، وماذا أعطى الحياة لكي أتعرف إليه وإلى نفسي من خلال هذه الآثار. رأيتُ في أوراقك قارون وفرعون ونيرون وشيخ المعرة وقرأتهم. قرأت الإنسان البسيط كيف يُساق، كما يُساق القطيع دون أن يكون له رأي في المسير... رأيت ورأيت... قرأت تقى الأتقياء والمصلحين، ورأيتُ الأشرار والأخيار، ورأيت أقدار اللَّه كيف تقوّض كل بناء أفرغه صاحبه من القيم والمُثل العليا، وغنت فيه مطربة الحي عارية الأكتاف، خليعة القصر! رأيتُ أشياء كثيرة، وهي ما تعلمتُ منها ونفيت وهي ما تكتب لك هذه الخاطرات.

لا أخلّف ورائي رحلات الماضي وأمشي مهرولاً عنها إلى المستقبل وأقول: ماضٍ قضى نحبه ولفظ أنفاسه

في أوراق التاريخ، ولا أمشي إلى الأمام دون مُتّكأ من أكتاف الماضي أتكئ عليه يُساعدني في رحلتي مع الحاضر والمستقبل، ويؤنسني من وحشة الطريق التي أجهلها، ولم يكن لها خبر في أوراقك، بل سأبقى معك إلى أن توصلني إلى قبري. ولكن ليس أكثرُ ما معك مطرباً لفتاة الحي الذاتي عندي، تحلم لي هذه الفتاة بأحلام غير أحلام النائمين على قارعة الطريق، ترسل لي أحلامها من غير أن أعرف مَنْ هي. نعم، لا أعرفها، ولا أدري أين منازلها، أهي في الكوكب الذاتي البعيد الذي تحرسه أضلاع المجهول في البعد اللامتناهي؟ أهي إشراقة الروح على عقل الإنسان؟ أتساءل ولا أذهب بعيداً في التساؤلات فأخلط الأوراق حتى لا جواب، هي من أمر ربي!!

22 ـ ماذا عن تاريخ القرن العشرين؟

أيها التاريخ: لم نقرأ رقماً واحداً من أرقام رحلتك الطويلة من غير أن يضع الجهل عليها بميلادك علامات استفهام وتساؤلات. فالذاكرة الزمنية معنا اليوم قد شاخت. لهذا كيف لي أن أجادلك وأنيخ جملك على ورقي لحظةً أو لحظات لترى معي في غرفة نومي عالَم الأرض كله، بل عالَم الفضاء، لترى إنسان القرن العشرين، القرن الذي يبشر بالعالَم الجديد الآتي مع القرن الحادي والعشرين. متغيّرات وتبدلات نرى ملامحها ونشهدها على مدرج الكون مسرعة في اندفاع مخيف، وسلطان اللّه يقودها من الأمام ويسوقها من الخلف لحكمة، وربما إلى القبر... ربما وربما!!

ولأننا ضعفاء بسطاء، ورعاة إبل وماعز وضأن، نتعبد اللّه بمفهومنا البسيط والطاهر من كل دَنَس، نرى الحدث والأحداث ولا نقوى على اعتراضها.

لا أدري ـ أيها التاريخ ـ لو أن هذا العصر اعترضك، وأنت تمشي الخيلاء، وقال لك: إني أشم فيك روائح كريهة لإنسان كريه، ليس فيه رائحة الفضيل بن عياض أو سفيان الثوري، إنه أذى على سمعة الإنسان ورسالته، إنه دم، إنه وقاحة، إنه فحش، إنه ظمأ وجوع للشر يقطّع أمعاءه، إنه جهل، إنه جنكيز خان وهولاكو، إنه وإنه، ما هؤلاء إلاّ رموز لكثير ممن تحملهم إلى عصرنا هذا. فماذا لو قال لك هذا العصر: تراجع إلى الوراء،

فإني عالم جديد لا أحتمل روائحك، عد من حيث أتيت!! فلربما تجد أكثر من في الأرض اليوم أشباحاً بشرية مهملة، سلِّهم بما معك، فهم مقيمون حيثما أقامت بهم مفاهيمهم ولذت لهم الإقامة، وربما ما نووا الرحيل. فعالمي غير عالمك. ماذا لو قال لك العصر هذا؟ ماذا ستقول له؟ بماذا ستجادله؟ لا أدري، ولكني أخاف عليك أن تقبل بالهزيمة التاريخية، إلاَّ أني آمل أن تكسب المعركة وتحاجج بعدل اللَّه وبالثوابت التي تساوى فيها كل البشر، ولم تكن لطائفة دون أخرى ولشعب دون آخر. فالعقل والفكر والرسالة الإنسانية كل هذه ثوابت في الإنسان، وهي التي يضل عنها من يضلّ، ويهتدي إليها من يهتدي. فالإنسان الذي استخدم عقله وفكره في جانب من جوانب ظواهر هذا الكون ورحل إلى الفضاء وجاء يتعالى عليك، أيها التاريخ، برحلة أذِن اللَّه بها، ومكّنَ الإنسان منها، ووقتت لها حكمة اللَّه الزمان والمكان والإنسان، ممكن أن تقول له: ما أنت عليه اليوم قال عنه القرآن الكريم وعنكم {يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون}. هذا أنتم، ذهبتم بسلطان اللَّه وستواصلون الرحلة التي لكم في غيب اللَّه، وفيما هو ليس لكم عليه سلطان، ستعودون منه، لأنه رحلة اللهاث والفراغ الروحي، مُصابين بالإعياء إلى مدافنكم، وبعد هذا تقول لهم: ـ أيها التاريخ ـ معي من صعدوا إلى السماء بقلوبهم، بأرواحهم، بقيمهم ومثالياتهم الإنسانية، معي الإيمان، معي الدين، معي

الوعد والوعيد، معي خيار البشر، من عرفوا اللّه بفطرتهم ورسالتهم، معي الأمل، معي كدح الأتقياء ورجاؤهم بلقاء اللّه فيما بعد هذه الحياة. معي الأخلاق، معي القِيَم، معي ما لا تنافسني فيه هذه الرحلات أو تهزمني: لأني التاريخ الإنساني.

ماذا سيكتب تاريخ هذا العصر، تاريخ الرحلات الكونية غير أن يقول: ما أعظم الخالق والمبدع!! ما أجلّ حكمته!! ما هذا العالم إلاّ عالمه!! سيقول: ما أتعس الإنسان الذي ذهب وعاد مفرَغاً فؤادُه من الإيمان بخالق هذا الكون وبوحدانيته!! أقول هذا، وأقول أيضاً لائماً ومتحسراً على أمة العرب والمسلمين، فالرسالة الكونية هي رسالتهم وهي التي كان الأمل كبيراً في أن تكون هذه الرحلات الكونية رحلاتهم، فالقرآن الكريم كله يدعو إلى التفكير، إلى العلم، إلى تساؤلات من اللّه تعالى في قوله: {أفلا تعقلون}. أليس في هذا عتاب وتوبيخ؟؟ سأقول وأقول، وأحمّلهم المسؤولية! فما أنا إلاّ حامل أثقال خطئهم وصوابهم! فقد رافقتُ الإنسان في رحلته الطويلة، فلي من عدل اللّه وعدل شرائعه حجة على هذا العصر وعلى إنسانه، فهو صاحب المسؤولية!!

أيها التاريخ: إني أحبك، إنك معلمي، إنك من أراني كثيراً من المتناقضات فيما قلتَه، ولأنك هكذا، معك أبو بكر الصديق، ومعك عمر بن الخطاب، ومعك الخليفة الثالث عثمان بن عفان، والإمام علي بن أبي طالب ـ رضي اللّه عنهم ـ ومعك عمر بن عبد العزيز، ومعك

فقهاء المسلمين والمجتهدون والمخلصون من أمة محمد ((ص)). ستجدني دائماً في خيمتك في قلب صحراء الجزيرة العربية، متى ما أصابك الإعياء من طول المسير فإني في انتظارك، أفتح لك قلبي وسمعي، وأجلس أمامك تلميذاً أستطلع منك أخبار الغابرين، فأنا واحد من رعاة الإبل، من عرب صحراء الجزيرة العربية، سكني ما بين اليمامة والدهناء في قلب نجد، ليس في ذاكرتي عن أيام صباي ذكرى لأوراق غير أوراقك، فقد كانت أيامي أيام ما قبل النفط، لا مدرسة ولا جامعة ولا معلم. لم تدخل خيمتي ولا كوخي رائحة للمعرفة غير قرآننا الكريم وفقهه الحنيف.

وحين يُسر لي أن أقرأك، حمل إليّ نسيمُ الصَّبا نَفَساً من أنفاس المعرفة، وفتح لي نافذة على ما هو خارج حدودي الضيقة التي عزلتني فيها الظروف عن كل ما حولي أو بعيد عني، فماذا رأيت؟ رأيتك رحّالة في عالم العرب وأيامهم وعهودهم، رحّالة في عالَم المسلمين وما فيه من أحداث وناس وقِيم وفعل وردوده. افتتنتُ بك وبعالمك وإنسانك، لم تتنبه عندي وتستيقظ في ذهني ناقدة واحدة من الناقدات لشواذ الأفعال والسلوك إلاَّ حين دخلتْ عليّ غرفة نومي، وخطتْ إليّ من البعيد بارقةٌ من بارقات العقل فيما هو أسرع من الضوء، وقالت لي: ماذا تقرأ؟ قلت: أقرأ التاريخ. سألتني ما التاريخ؟ قلت: أفعال الإنسان ورحلاته في هذا العالم. فسألتني مَنْ يكون هذا؟ قلت: رحالة عظيم. قالت: حقاً

إنه لعظيم، مشى على أقدامه في مئات السنين أو آلافها، ولكن ماذا قال لكم؟

جادلتني فكرة رحلة الفضاء عنك وعمّا معك من أحمال وأثقال، وما فيها من حشو وحاشيةٍ أرهقت عقل الإنسان. ولأني يومها من تلاميذك الصغار الجالسين تحت منبرك يملي عليهم في أوراقه زيد وعمرو: كيف وماذا وإلى أين؟ سألتني بارقة العقل الذي رحل بالإنسان إلى الفضاء: كيف ترى وتستقبل هذا الرحّالة وما معه؟ قلت: أستقبله معجباً به، مُجِلاً له، واثقاً به. قالت لي مجادلتي: من الذي يستقبل منك ما هو خارج ذاتك؟ قلت: عقلي. قالت لي: أصحيح أن لك عقلاً، وأنت سائمة تسرح بك الإشاعة والأكاذيب والظنون، ويُقيتك كل هؤلاء ثقافتك ورؤيتك لعالم اللّه سبحانه؟!

رجّتني هذه المقولة، فشعرت بشيء من فُتات تفكيري يتبعثر على الورق، فخطوتُ إلى هذه المجادِلة، بارقة العقل، لأكمم فاها وأخنق صوتها الذي أطل عليّ من نافذة التلفاز. إلاّ أن الذات عندي تحولت إلى ركام وفتات من فضلات الجسد، فعاقتني عن الحركة والمجادَلة، وبكت عندي وصايا جداتي وخالاتي، ثم انسحبن من الأعماق وأخذن لهن من حولي دائرة ضيقة الصدر، حاولن أن يرددني إلى حكاياهن وما ورثنه من البعيد، ولكن لحظتها غشيهن النعاس فخرجت ولم أعد إليهن، بل نهضتُ إلى مجادِلتي، بارقة العقل، التي هبطت بالإنسان على صخور القمر، فقلتُ لها: هذا أمر

اللّه ودعوته لنا، نحن المسلمين، إلى أن نعي حقائق العلم وما في حكمة اللّه من أسرار، إلاّ أننا، ويا للأسف، «غُثاء كغثاء السيل»، كما قال نبي الرحمة ((ص))!

أثار هذا القول العظيم تساؤلات كثيرة في نفسي: ليس هذا جبرية علينا أبداً، لا جبرية، لو كانت جبرية لما دُعينا إلى أن نعقل ونتفكر ونسيح في عوالم اللّه ولكن، ويا للألم والحزن والخسارة، صار بعضنا إلى قطيع يسرح به رعاةٌ[7] من عالم العرب والمسلمين لا يعرفون منازل الغيث والخصب العقلي!!

واليوم لا أريد أن تأكل أوراقي من لحوم الموتى، إن كانوا في قبورهم، رحمهم اللّه، أو في الشارع العام، هداهم اللّه. فأكل لحم الميت حرام ووحشية!

لا أدري أغائبات الذهن من بنات الحي عندي حبلن بمواليد غير شرعيين؟ فالحياة على وجه هذه الأرض قد تفترسها مواليد الذهن في لحظة من اللحظات... لا أقول هذا، والخاطرة التي جاءت، ومعها هذا التشاؤم، حالمة بأحلام الصالحين من البشر، أبداً، فهي من أحلام الرؤوس النووية في عالَمٍ لا مسجد له ولا تقي يقوده في مسارح الفضاء على هديٍ من حب الخير والحياة والناس! والشيء الذي يخيفني دائماً هو أني والذاكرة، في حالة من التساؤلات: أأنا في كل ما كتبته واقع في تناقض وتكرار؟ لا أدري. ولكن على ذاكرة الشيخ يقع العتب، وربما إذا أعفاها قارئ من ذلك، وردّه إلى

الشيخوخة وآكلات الإنسان من السنين ومضعفات قواه، يكون عادلاً.

Z. إشارة إلى تبديد وحدة المسلمين في شعارات ومذاهب شتى وطائفية في كل شيء.

23 ـ نستقبل الحَدَث ولا نستطيع الاعتراض عليه

لا أدري، أيها التاريخ، وأنت الآتي إلينا من بعيد، تُرقِل بك الأيام والليالي على متون المغيبات، ما الذي معك وما الذي وراءك وما الذي أمامك؟ نصغي إليك وأنت فوق منبرك، منبر الدهور السحيقة، تلقي مواعظك ودروسك على تلميذ أو تلاميذ أحرقت أكبادهم قصة محرق روما. ولأن الأيام والليالي معنا اليوم غير ما كانت مع السابقين لنا، كما نتصور، أخشى أن تعقرك سارحة من سوارح العقل في هذا العصر فينمحي من أوراقك كل ما هو ماض، فنجد أنفسنا بلا معتقد ولا مكارم أخلاق ولا قيس وليلى ولا حتى زيد بن عمرو النفيلي[8]، وقد نتوه ذرات في الفضاء.

أنا حائر مع الحائرين وعاجز أن أسير في عالم اللّه الواسع، فأعضاء فكري وعقلي أسقمها الجهل، خائف أستقبل حظي مع الأيام، وإن طرق بابي ليلاً ونهاراً، أبقيه مُغلَقاً عنه، لا أريده، وإن كانت معه خزائن كسرى وقيصر...

أنا بدوي أحنّ إلى خيمتي... ليتني أستقبلكَ الآن فيها ضيفاً عليّ لأنحر لك سأم الليل والنهار!! وأملي عليك كيف أنا، وكيف أيامي، وكيف الناس من حولي!!

رتيبة هي الأيام اليوم، باردة مفاصلها، جائعة معدتها، عرجاء ساقها، ظمأى من شدة العطش في هذا العالم، ولا أدري كيف نستقبلها اليوم وأنت معنا؟ فدمشق

الأموية في أوراقك، وبغداد الرشيد، وقاهرة المعزّ، وقرطبة والحمراء، من أسلمتهم يثرب الدورَ الإنساني العظيم، هل نجد معك، أيها التاريخ، حساباً دقيقاً وأميناً لكل ما قمن به؟ هل بين هذه العواصم التاريخية مَنْ قدّر مسؤوليته العظمى من هذه الأمانة عبر القرون؟

لا أتساءل، وفجاج الأيام الطويلة تدفع بالأحداث ركباناً وراء ركبان، من جيل إلى جيل، وعلامات الاستفهام واقفات على الطرقات يسائلن المارة: أليس فيكم قارئ يقرأ لنا شيئاً عن حياة أشجّ بني أمية، رحمه اللّه؟ وعن قصته مع الأعمام والعمات؟

ليت هذا الرجل العظيم التقيّ مكّنته الأيام من أن يحقق أحلامه العظيمة في تصحيح المسار الذي أراده لأمة الإسلام! لو كان له ذلك ما جاءت الرايات السود، ولما كثُرت العواصم، ولما جاءت الثورةُ الكبرى التي أسلمت الوطن العربي والإسلامي للاستعمار ووعد بلفور، ولما جاءت حرب البسوس تجدد نفسها مع كل شعار!!

نعم، أقول ليتَ عواصمنا العربية تدخل التاريخ من جديد!! وعلى قدر كبير من أمانة المؤرخ!! فنحن في عصرٍ يؤرخ للنجوم ولأسرار الأرض والبحار، ويرصد لمراصده العلمية أدق الخفايا والأنفاس، ويقيس المسافات الكونية، ويسير بهذا الرصد يوماً بعد يوم، والفضاء يتسع ويتمدد، وكثيراً ما عاد علماء الرصد إلينا، نحن سكان الأرض، يقولون لنا: ما هذا الذي ننجذب إليه

بسرعة الضوء؟ وكلما قدّرنا أننا مشينا إليه في خطوات واسعة قال لنا الفضاء، وقالت لنا حكمة اللّه: ما معكم غير خطوة واحدة!

هذا التحول الرهيب هو ما يصدّع رؤوسنا، وإذا عدنا إلى عقولنا، وحاولنا أن نستقبل منها تفسيرت لهذا الذي يجري، قالت لنا محتجة علينا: لو لم تهملوني وتضعوني موضع التخلُّف فيكم لكنتم اليوم رواد الفضاء وقادة الدنيا كلها. لكنكم عشتم في أكثر عهودكم في ملهاة مع رغباتكم ونزعاتكم الخاصة فتثاقلت خطى العقل محاصَرة بالرغبات والشهوات والأنانيات، وتاريخكم شاهد عليكم. وما خرائب قرطبة والحمراء وسواهما في هذا العالم إلاّ باكيات وحزينات على حضارة ومجد أضاعهما السفهاء!

وما هذا التبدُّد في العالم العربي والأعلام الكثر للقرى الكثر، إلاّ محل تساؤل وهزيمة لروح الأمة.

لا أدري لماذا أنا خائف على الأصيل فيك والكريم، أيها التاريخ؟ ألأن العصر وأهله قادوا معركة الصراعات على ديننا ودنيانا، نحن أمة محمد ((ص))، وصارت مطاياهم ترقل ليلاً ونهاراً على ما كان لنا، قديماً وحديثاً؟ نرى حركة تشكلها الأحداث في صُوَر من الخداع البصري، فنقف أمام الحدث والأحداث نستقبل منها الخبر، نستقبله ولا نستطيع الاعتراض عليه لأنه القوي... وظني أن الطريق الطويلة قد عبدتها للماشين

عليها من البعيد إلينا، عرباً ومسلمين، نزعاتُ العصور السحيقة ومواريثُها.

والسؤال المحيِّر الآن: ماذا عنك، أيها الشيخ الوقور، التاريخ؟ هل في استطاعتك أن تدافع عن نفسك وعنا، وتهزم سلبيات هذه الحضارة المعاصرة، وجَوْرها علينا؟ وتُفسر لنا من حكمتك كيف ساروا إلى البعيد في الفضاء وكيف بقينا نحن، مع مواشينا؟ هل سترى أن شيئاً فينا تغيَر عمّا معك؟

قد تقول: عندكم جامعات، وعندكم صحافة وإعلام، وعندكم في عالمكم العربي والإسلامي أقلام. وإذا قلتَ هذا فسنفتح لك أبواب الجامعات مُشرَعة من المحيط إلى الخليج، لتزورها، وتفتح الحوار معها إلى أن يتصبب عرقُك من شدة التعب والمجادلة، لأنك لو جلست عشرات السنين لما نفد الجدل، فقد غصت به مكتباتنا وغصت به شوارعنا، ولا ندري ما درجة الجدل في هذا العصر؟ هل درجته في المعمل وفي رصد الحركة الفكرية والكونية مثل درجته الخطابية والكلامية؟

تسرح بي هواجسي وطنوني مع الأيام، تجادل عندي هذه السوارح أحلاماً لا تفارقني في ضحى النهار أو في هزيع الليل... ولا أعرف ألهذه الأحلام عندي أسرةٌ أذهب إليها داخل نفسي لأسائلها مَنْ الذي يدنيني من الأوراق ويدنيها مني؟

والورق عندي وما تريقه عليه أحاسيسي هو «حُشاشةُ نفسٍ وَدّعَتْ حين وَدَعُوا»، ومن هم الذين

ودّعوا؟ هم عند أبي الطيب غيرهم عندي، هو رجل صاغ فلسفته وأفكاره ونظرياته مِنْ مَرآةِ لعالمه، وما استقبلته تجربته من هذا العالم. أمّا أنا وعالمي الذي أعيشه فهو عالم المفاجآت، عالم الأرض والفضاء، عالم ترحل فيه العقول من قفر إلى آخر في هذا الكون البديع، فكيف لي، والحال هكذا، أن أستجيب للورق، وعلمي بنفسي يلقي عليّ احتجاجات لا تقبل معاذيرَ ولا تستريح على ورق؟؟ لا أفهم شيئاً، يتساوى فهمي مع فهم طفل صغير أعيت عليه أسقامه أن يكبر فتكبر معه معارفه!!

لعليّ أجهدتُك، أيها التاريخ، سأبني لك خيمةً تستقبل فيها أوراق قومك وأهلك العرب، وما فيها من صور في مرآةُ صاحبِها معلَّقة على جداره... نستقبلك بإجلال واحترام، إلاّ أننا جيل مشاغب قد نُنغّص عليك استراحتك على فراش فرشه لك النفط، بدلاً من حصباء الوادي، أو حصير من سعف النخيل.

أنت لا تعرف شيئاً اسمه النفط ومشتقاته، ولا أتصور أن ورقة من أوراقك حملت عنه ذكرى. إنه واحد من فتن العصر، إنها أنهار من الدولار والدرهم والشهوات تجري في باطن الأرض كان يطؤها الإنسان، وذاكرته عنها نائمة في الوطن العربي.

والسؤال الذي لم نجد الجواب عنه: لماذا لم تستيقظ ذاكرة الإنسان عليه إلاّ في هذا العصر؟ ولماذا نحن أهله، من نضرب خيامنا على جبهته ونرعى مواشينا عليه، لم

تستيقط لنا ذاكرة عنه من آلاف السنين أو ملايينها؟ هو اليوم في الحياة العامة معركة أحاطت بالماضي والحاضر والمستقبل، ولا يعلم، غير اللّه، كيف ستكون النهاية. ليت الذاكرة التي استيقظت عليه في ذاكرة أهله، ليته في معاملهم!!

لا أقول هذا، وجيبي مُفرَغ منه، ولكني أخاف أن يحرق هذا الجيبُ قيماً ومُثلاً عليا، أخاف أن يُخرجنا من مساجدنا، ويشرع الأبواب والنوافذ في بيوتِنا لتدخل منها روائح لا نريدُها، قد تُفسد صغارنا وتأخذهم عنّا وعن أصالتنا بعيداً. شعاري في ذلك قولُ الشاعر القديم:

يهونُ علينا أن تُصابَ جسومُنا
وتسلمَ أعراضٌ لنا وعقول

8. زيد بن عمرو النفيلي: جاهلي، كان رافضاً للمعتقدات السائدة في عصره، يطوف يُسائل هذا أو ذاك عن نبي سيخرج من الجزيرة العربية. ذهب إلى الشام، وفي أحد الأديرة التقى براهب كبير قال له: لقد وُلِدَ هذا النبي الذي تسأل عنه في بلادك مكة، وفي طريق العودة قُتل.

24 ـ أريد حياته ويريد قتلي!!

فيك ومعك الماضي ـ أيها التاريخ ـ وفينا ومعنا أسراب من التساؤلات، كل سرب من أسراب النفس يرعى الاستقرار ويأكله، ولا ندري علام نحن مقبلون؟ كل شيء يخفت بالهمسات في أرض الإنسان وفي أتربة هذا الكون ومجرّاته... «نرى عِظَماً بالبين والصدّ أعظمُ»، ولا نرى ما في جيوبنا التي في صدورنا. كل شيء خفي، وما لم يكن خفياً لا يحكي لنا إلاّ همسات لا نرى معها أكثر من الظنون والتخيلات لعالم من الوهم، لم نجد كاتباً واحداً يُدلي بشهادته أنه الوهم والسراب الخادع أو اليقين.

بقيتُ في قلبِ الصحراء أعيش ما يشبه العزلة، لا أجد لي محاوراً غير نازلات البيت عندي في قفص الاتهام، والحوار كثيراً ما يتحول إلى جدل وإلى مناجزة بين الجار وجارته. وإذا هاجَ الشوقُ جملي، وأرزمت ناقتي بالحنين، أوقفني أمامهما سؤال كابدته الفطرة في الإنسان والحيوان وربما في النبات: أهذه هي الحياة، جمل وناقة وإنسان وربة بيت؟

أستعجل الخطى مع الأوراق لائذاً بحكمة اللّه، مبتعداً عن منازل الهموم والخاطرات المريبة في النفس. ما أعنيه هنا لم ألتقط أخباره ولغته وحركته من المسافرات في هذا الكون، أبداً. إنه شيء فينا ومعنا نُكابده، نطعم التاريخ منه بالقذر القليل، ونسقي إبلنا

الذاتية من مياه سحبه، توقظنا الأحلام عليه، ولكن لا نجد من يفسرها.

في قلب الصحراء، في منازل قيس وليلى، بنيتُ خيمتي فترة من الزمن، وبقيتُ داخلها أتلقى الدرس من عالم الصحراء والنجوم والذكريات عمّن عاشوها قبلنا، ورعوا إبلهم وأغنامهم في أوديتها. تراءت لي الحياة داخل خيمتي جامعة تلقي عليّ الدرس من الفضاء ومن نفسي ومما حولي.

والذات، أيها التاريخ، قد تكون أعسر الحصون في هذا الكون، غامضة غموضاً أضنى الإنسان فينا، واسعة لا حدود لها، تسكنها عوالم من المتناقضات محكومة بقوة خارقة لا يستطيع مفسر أحلام أو مؤسس مدرسة نفسية أن يخطو فيها خطوة واحدة. هي البعد كل البعد، وهي البخل كل البخل، ولا تبذل من ذاتها خارج البيت غير الشحيح من العطاء. فهل أن ما في التاريخ ومعه من هذا القليل؟ وهل أن الإنسان في بُعده عن حكمة اللّه لم يكتب تاريخه وصورته التي له حتى الآن؟ لا أدري، ولكني أتصور أن الإنسان ليس من فضلات الحياة وحواشيها الرديئة، أبداً، بل هو «خليفة في الأرض». إنه سنام الوجود المحسوس، قَدَرُه الكدح والأمانة، وما هذه الاستجابة العلمية له ولعقله وتفكيره، في هذا العصر، إلاّ مدخل به إلى سجلّ حافل من التفسيرات العلمية لدوره مع هذه العوالم والأسرار، ليخرج بالبشرية من طور إلى طور، ذاهباً بها إلى البعيد،

مسافراً وراء المسافرات من هذا الكون، بسلطان الخالق الذي مكّنه من ذلك. ولا نستطيع أن نقول إن هذا حقهم لا شراكة لنا معهم فيه، أبداً، إنه حق الإنسان وعدل اللّه في صنعه.

لا أعرفُ ماذا بعد، ولكني، ومن إحساسٍ خرجتُ به معي إلى هذه الدنيا الواسعة من الصحراء، أشعر بالأسى والألم وضيق مجرى الوعي في عالمٍ هو عالُمنا الكبير، عالم مرت به الأحداث الجسام، وما زالت ملامحها قائمة في الأفق تمشي إلينا في نظام مُحكَم من الدهاء ولؤم أهله، وكأنما لا شيء يعنينا. وما أكثر ما تأتي به الخاطرات في هذه اللحظة من الملامات ومن العتاب، ولكن «أريد حياته ويُريد قتلي»! عالمنا الكبير ما أكثر من أراد له الحياة وحاول أن يضيء له العتمة، فما كان له من جزاء إلاّ قتلُه أو نفيُه على هامش الحياة! «أريد حياته ويُريد قتلي»!!

أنا أشفق عليك من هذا العصر ـ أيها التاريخ ـ وأشفق على مَنْ يتصور أن مزوِّراً ومنافقاً سيُدخله أوراقك، فالعصر لم يعد يقبل بقارون أو بمحرق روما أو جنكيز خان أو هولاكو في أن يدخلوا التاريخ مُلمَّعين بأيدي المنافقين والمرتشين وخَوَنة القِيَم والمُثل العليا!!

في ذكرياتي عن الخيمة والصحراء، أيامٌ عصفت بها رياح العصر، وقالت لي يومها ضائقةٌ من ضائقات العصر بالخيمة والصحراء: ترجَّلْ عن ظهر جملك واركب جِمال العصر، وطوِّفْ في عالم الأرض، وتأمَّلْ ثم عد إلى

أوراقك واكتب!! فاستجبت «مُكرَهاً أخوك لا بطل»... وتصور ما شاء لك التصور، أيها التاريخ، عن بدوي ظنّ أن الدنيا كلها دنياه، أوهَمَه بذلك جدُّه عمرو بن كلثوم يوم قال:

لنا الدنيا ومن أضحى عليها

ونبطش حين نبطش قادرينا

استجبتُ للقويّ المنادي، أخذ بيدي وأركبني مراكبه، ذهبتُ إلى عالم واسع من البشر ومن الأرض، ومن البحار، توهَّمتُ، وجمل العصر سابح في الفضاء، أن يدي يمكن أن تُلامس القبة الزرقاء، وبسرعة خرجت من عالم إلى عالمٍ كل ما فيه غريب عني وأنا غريب عنه. أوشك أن يتصاغر اعتزازي برسالة السماء التي اختارت لغتي في قلب الصحراء وأكرمتها بهذه الرسالة الإنسانية، أمام غطرسة العالم الجديد. إلاَّ أني استجمعتُ، بعسر، ذكرياتي عمّا معك، أيها التاريخ، من فضائل عظمى لبستني وجمعت شتات نفسي وحمتْها من التصدّع.

رأيت الإنسان الآخر، الذي لا أفهم عنه غير ملامحه وحركاته، مغلِقاً عني كل سبيل إليه، رأيته خليطاً من البشر مسرعاً في حركته، خطاه همس وكلامه خفوت، لا يُعطي فرصة لمن يُراقبه أن يسجل شيئاً عنه، منصرفاً إلى تجديد ملابس الحياة في نفسه وفيما حوله. رأيت الطبيعة السخية فأذهلني مرآيَ لها. توهمت أني أحلم وعجزتُ أن أتماسك وأنضبط عن عادتي مع التساؤلات: أليس هذا الذي أراه في الطبيعة جمالاً هادياً إلى الخالق

العظيم؟ فجاء الجواب إليَّ مسرعاً من السماء، من السحب، من الدِّيَم: ما أضلَّ الإنسان وأعجزه عن أن يرى ويتأمل صنعَ اللَّه!!

معذرةً، أيها التاريخ، فإنسان مثلي لا يقوى أن يصف الجمال والمشاهد التي رآها، فلغتي الجميلة والكريمة هي لغة الجمال والمعبّرة عنه، لكني لا أملكها، ولم أجِد لي في قلب الصحراء معلِّماً يُجيدُها!!

25 ـ ما أقل من استعار رقبة البعير...

أردتُ ـ أيها التاريخ ـ أن أنصب لك وسط غيوم النفس خيمةً لأستضيفك فيها وأُنادي إليك النزيلات والراحلات والآتيات والذاهبات من الخاطرات والتساؤلات عمّن مررتَ بهم أو مروا بك من عالم البشر. إلاَّ أن للنفس عالماً لا يستجيب لمناديه، وإن ضرب له خيمته وناداه وسط الغيوم!

لي أعوام طويلة، وأنا أُنادي على عالم الذات لأتصالح معه في غربتي التي لم أجد لي فيها أنيساً. كل من قابلتُهُ وحاولت أن أستأنس به قال: إني غريب مثلك. فقلت له: المثَل يقول: كل غريب للغريب نسيب، قال: كلامٌ لا أثر له في الواقع! ولا أدري في أي مكان أنصب لك خيمة الضيافة، وأبقى معك بالمقدار الذي لا يلحق به معك ملل أو ضجر؟

تداعت الأسئلة من البؤس النفسي تتراكض جائعةً إلى من يجيبها.

تزاحمت بالمناكب خاطراتٌ كثيرات، كل خاطرة تدفع بسؤالها، والتاريخ الشيخ يشهد الحركة والضجيج من حوله، ثم يتساءل: مَنْ هؤلاء؟ قلت له: إنهم أهل العصر من يثير كل ساكن، ولا يستقبل في بيته أو في خيمته ضيفاً لا يعرفه ولا يعرف قبيلته ونسبه وماذا معه؟ إنه العصر يحشد التساؤلات من حولك ليتعرف إليك، وبذلك يتعرف إلى الماضي الذي تكابد حمله. تراءى لي

أنه تململ وقال: ساعدني، خذ بيدي لأخرج، فهذا العالم الذي من حولي حاملٌ أقلامَه وسكاكينَه ليجرح بدني، أخْرِجني منه!!

بقيت أسترضي الشيخ العجوز وأقبّل شعره الأبيض، توسلتُ إليه بإخلاصي له وإشفاقي عليه ألاَّ يقلق أو يسأم، أدنيتُ منه مُتَّكأً لتتكئ عليه ذاكرته، وهي ذاكرة مُتعَبة أضناها السفر الطويل وأضنتها الأزمنة، فتنفس الشيخ الجليل الصعداء وقال لي: مَنْ أنت؟ قلت: واحد من البسطاء الذين لم يرد لهم ذكر في أوراقك، وكيف كانوا يفكرون ويعيشون ويعبّرون؟ دخلوا الحياة وخرجوا منها مجهولين وربما ضاعوا في متاهات الإهمال؟

ظهرت على الشيخ أعراض الحَيرَة فسألني: مَنْ تعني؟ أنا لم أعرف هذا النوع من البشر، كل الذين عرفتُهم وحملتُهم معي هم الأقوياء المنتصرون. معي خليط من الناس ومن الأوراق والأفعال. يمكنك أن تُبقي خيمتك هذه ما شاء اللّه لك وتقرأ كل ما معي. ثم قدَّم لي كتابه، فصرت أقرأ، وهو مستريح لا أحد يجادله ولا ينغص عليه استراحته. هو استراح ولكن، بذكاء، أسلمني للقلق والسأم والضجر وقال لي: اقرأ وواصلِ القراءة في أوراقي.

اضطربتْ في ذهني صورٌ باكية، سألتُها: لماذا هذه الدموع؟ قالت: على حياةٍ عشناها ومواليدَ فرحنا بها، أمهاتٍ وآباءَ وإخوةً، ظننا أننا آمنون من غدر الجار

القريب والإنسان البعيد على وجه هذه الأرض، فإذا ما كان فرحاً بالأمس صار إلى ترح. طرق علينا القوي باب البيت، وقال: أسلموني آمالَكم وفرحَكم وسعادتَكم. ويومها خرج الأبناءُ من حياتنا... وإلى أين؟ إلى معارك الموت والدمار!! تلاحقت علينا المصائب، ومثلما وُلدنا منها عدنا إليها أشدَّ عُسراً ومُصاباً، وهذا ما تراه في هذه الأوراق: جيل يسلم أوراقه ومعاناته وقسوة الحياة عليه للجيل الذي يليه وهكذا، والتاريخ يستقبل كل ما هبّ ودبّ من عند الإنسان.

والإنسان هل ركب إليه العلم مراكبه الضوئية وهل تحدَّدتْ معالمه؟ هل عرفه أحد وعرّفه؟ لا أظن، والظن غير اليقين. يوم أعود إلى ذاتي، أتذلَّل لها وأتملَّقها لعلي أقبض على شيء مما في أرضها أو سمائها، لا أجد غير أني إنسان، أذهب إلى مسجدي، أبكي ساجداً ومسبّحاً وقائماً، أدعو، أسترحم، ثم أخرج من مسجدي ليس معي غير الأمل والصمت. لا شيء أراه غير أعضاء تتحرك، أجهل الذي يحركها ويوجهها في هذه الحياة، أجهله ولكني أحسه، وكثيراً ما دخلتُ معه في صراع عنيف لا ملمس له ولا لون ولا صوت ولا عشيرة أعرفها فأكتب عنها لأستريح. كل شيء غامض.

حاولت أن أجد في أوراق التاريخ حالة كهذه الحالة عندي وما عبّر عنها صاحبها بغير الحَيرة. أتذكر أيام صباي وشبابي وقريتي وصحرائي، ومع الذكريات يحضر إليّ الأصدقاءُ والأهل وأبناء قريتي، أرحل إليهم،

أسائل عنهم ذاكرتي: أين هم الآن؟ فتتلعثم هذه ثم تبكي وتقول: لقد رحلوا جميعاً، فالرحلة بعيدة، هي الصمت كله، وهي الغربة، وهي الأمل، ولا أدري كيف بقيتُ بعدهم؟ فالحياة سرقت مني العمر، ولا أدري أين هو اليوم؟ وماذا في سجلّ التاريخ الذي لنا، نحن البشر، عنه؟ شيء مجهول لا يعرفه إنسان، فهو تاريخ يكتبه الرقيب الإلهي من أفعالنا.

أقامت هذه الذكريات في نفسي سؤالاً حملتُه معي إلى التاريخ الهاجع في خيمتي: ماذا في ذاكرتك عن الإنسان؟ فتح أوراقه ثم قرأ وقال: ليس معي شيء غير الفناء، كل ما في هذه الأوراق فناء في فناء، وعبء ثقيل على عقل الإنسان وفكره. ما أقل ما في هذه الأوراق من استعار رقبة البعير ليستشرف بها الطريق البعيدة قبل أن تصل إليه الأحداث!! فأغلب الرقاب القصيرة هي التي أملَت التاريخ، وهي التي تراها الآن جثثاً في حُفَر! وهكذا...

26 ـ ما أكتبه عن نفسي قد يُغنيك عن الآخرين!

ما أكثر ما قابلتني داخل نفسي عارضاتُ هموم هنّ مصدر معاناتي في قلب الصحراء الذاتية!! أقف معها أسائلها، أأنا هارب إليك ألتمس منك استقراري؟ فما عاد في دنيا الناس أمن أو استقرار. لحظتها شعرتُ أن شيئاً تسلل إلى نفسي قائلاً: ما همومك داخل نفسك إلاّ من همومك خارجها. فلا مفرّ لك من عالم هربت منه وقدّرت أن عالمك الخاص غير عالمه، العالم واحد. بدت علي أعراض الحَيرة، أخذتُ أتعثر في طريقي إلى عالم كنتُ أبحث عنه لأجد لي السلام معه، عالم كلما مشت بي ركائبي على طريق الأمل إليه اعترضها قطّاع الطرق ولصوص الذات فنحروها حتى لم أعد أجد لي راحلة واحدة تستطيع العودة بي إلى عالم الخيال لأجد لي فيه ملاذاً ولو وهمياً أستريح فيه!!

ولا أعرف من الذي يكدّر صفو الحياة وجمالها فينا؟ ويكسر سيقان الماشيات من الذهن إلى جَمال هذا الكون في الأرض وفي الفضاء؟ أتساءل من محنتي مع المجهولات عندي، نزيلات البيت الذاتي. ولا أظنني بأحاسيسي ومشاعري قد خرجتُ من جيب هذا الكون الجميل إلى عالم غير عالمه، فهو في نفسي ومعي أينما اتجهت، فأشجار الكون والناعسات فيه من النجوم عالم ليتها ضاجعته أحلامنا!

ولكن الشيء الذي لم أقرأه في أوراقك، أيها التاريخ، ولا حتى في أوراق هذا العصر: من هو الإنسان؟ لماذا تهرب عنه أفكارنا وعقولنا إلى أسواق البائعين والشارين فيه بالبغضاء والكره والتعصب والفتن؟ أقول لماذا تهرب إلى الفضاء وإلى المتاعب والمشاكل؟ لماذا لا تكون ريادة الإنسان متجهة به إلى نفسه، إلى ذاته يسائل المارين به والآيبين والذاهبين من نبضات العروق وخفقات النفس وحركة الخير والشر: أأنتم عائلتي وأنتم عالمي الخاص؟ لماذا تقذفون بي خارج البيت؟ ليس معي منكم غير الخوف الذي يلوّن الحياة في ذهني بألوان من الرعب ومن القلق والسأم، ويجعلني أهرش كل ما في هذا الكون من جمال وسعادة؟

وليت إنسان العصر يوم أخرجني من سكينتي، من عالمي الخاص، فتح النوافذ على ما في فضائه من روائح شذية، ونجوم باسمات، وأقمار مضيئة، وخرج من سِجنه الذاتي، ودخل في حوار حميم مع هذا الكون ونجومه، وما أسمعنا بشيء اسمه حرب النجوم، وهي حرب صنعها الخوف والرعب!!

ألي أن أتساءل، أيها التاريخ، عن بغايا الذات متى صرن باغيات؟؟ ومن الذي دربهن على البغي؟ فالإنسان يولَد على الفطرة. والفطرة هي البراءة من كل باغ أو باغية. لا أدري لو جاء الجواب ومعه الخبر، ماذا سيقول؟ أيقول: بقدر ما في هذا الكون من ذرّات ضوء أو ظلمة أو كائنات حية في الأرض أو في البحار أو في

الفضاء، هي في الإنسان، جاء بها معه ليدخل معركة الصراع الرهيب، بينه وبين هذه الكائنات الحية، المعلوم منها والمجهول؟ لأنه الإنسان الكادح إلى ربه، والكدح هو الضنى والمعاناة والصبر والاحتمال.

ليتني بقيت كادحاً في مزرعة أبي، أزرع الأشجار، وأرعاها بكدحي!! ليتني يوم حملت الأمانة، ومشت معي الكائنات حاشيةً لي، وضعتُ يدي في يد قرينتي وقلتُ لها: ماذا ترين؟ وكيف المصير؟ أتتحملين الكدح معي؟ أتشعرين بأبعاده في نفسك؟ لو كان ذلك كذلك لما وقع الاضطراب بيننا وبين ما في هذا الكون من كائنات. ما سبب هذا الخلل والاضطراب والقلق والهموم؟ أتصور أن السبب الوحيد هو أننا لم نتعارف ونتصالح فيما بيننا وبين الأمانة التي نكدح من أجلها.

أنا لا أردّ همومي ولا سأمي، ولا حتى حَيْرتي، إلى مشاكلي الآنيَة، أبداً، ولكن مشكلتي هي كيف أكدح؟ أنا لا أحسن الزرع، ولا أفهم طريقة سقيه أو ريّه، إن كان مع حقلي الخاص، أو مع الحقل الكوني، أنا إنسان أشعر بالخلل النفسي، وكم حاولت أن أرمّم هذا الخلل، ولكنه خلل أهملناه إلى أن عسر علينا تصحيحه.

تزرع لنا الحياةُ الأشجارَ الجميلة والورود، وتلوّن السماء بألوان من الجَمال الروحي، وتغرد لنا حمائمها على الأشجار. وما اعتراض قوس قزح في كبد السماء إلاّ تكريم للإنسان، ولكن يعزُّ على الجمال في النبات وفي الجميلة لابسة الخمار أن يموت كل هذا في نفس

الإنسان، لا يحسّه ولا يشعر به، بل يستضعفُ الوردة الجميلة فتمر عليها قدمه فإذا هي تبكي وتئن من شدة الوطء عليها!!

لماذا تَطَوَّرَ وتَجَمَّلَ كلُّ شيء في هذا العصر إلاَّ الإنسان؟ إنه يتراجع إلى الخلف، يدوس الجَمال ويُذلُّهُ، وإن ركب مراكب الفضاء. إنه اليوم يمثّل الرعب والهلع للحياة وما فيها من أحياء على هذا الكوكب.

لا أدري ـ أيها التاريخ ـ كيف تراني في هذه الرحلة الذاتية الشاقة التي أعانيها؟ فهي رحلة العمر الطويلة. يوم أتلفّت ورائي أسائل الخطى: أمعكن شيءٌ لي؟ ويقلن لي: معنا التساؤلات ولا شيء غيرها، أشفقُ على الإنسان الذي تضطرب خطاه على طريق العمر، يودّع الحياة والدموع ساخنة من حوله لحظةً أو لحظات ثم تجف، ولا عبرة ولا اعتبار.

ويوم تلفّتُّ ورائي وساءلت أيامي: ماذا معكِ لي من أخبار؟ وهل زرعتُ شيئاً وأسقيتُه ثم علَّلتُه من عرقي ودموعي وكدحي؟ غيمتْ على أسئلتي سحبٌ من الصمت!!

أتذكر يوم كنتُ أسرح بقطيعي من الأغنام في قلب الصحراء، أرتاد لها الربيع، أنها جاءت إليّ متدافعة هاربة تعدو إليّ كأنما تقول لي: الذئب لحق بي، أنقِذْني!! التفَّتْ حولي، وكنت وسط الدائرة منها، شعرت يومها بمسؤوليتي عنها كراعٍ لها، بقي هذا الشعور يلازمني ويفلسف لي مشكلة الضعيف مع القوي، ولكن مدنية

العصر وحضارته ربما أضعفتاه عندي. لا أسوق ـ أيها التاريخ ـ من أغنام الذات قطيعاً من الماشية على أوراقي، وأتركها هملاً ترعاها الذئاب في قفارها، ولا أدري، أهذا مني تزكية لراعي الغنم وتضليل للورق وقارئه عن ملامح الذئب، عند رعاة الغنم، أو رعاة البشر؟ لا أعرف، فأنا واحد من الرعاة، بيدي مسؤولية وأمانة، وأخشى ألاّ تأتي في يوم قريب أو بعيد، ومعها صورة الذئب في صورتي!!

تجربتي مع الذات ومع المسؤولية، لو جلستُ لها العمرَ كله أسجلها لك، لضاق صدر الورق وملّ ممّا يستقبله من ثعلبة النفس وتملقها للورق. وهنا قد لا أستطيع أن أركب إلى ورقي الطريقَ الوعرة، فتركبها معي الأكاذيب والتزوير، وتلميع النحاس فيّ بالفضة والذهب... ما أكتبه عن نفسي لو صَدَقْتُكَ فيه ـ أيها التاريخ ـ وأعلنتُ كلُّ خافقة من خافقات النفس عن حقيقتها لتساءلتَ عن الإنسان الرديء الذي معك، وناديتَ عليه متسائلاً: من أنت؟ ومن تكون؟ ولماذا أثقلتَ كاهلي؟ أكابد حملك منذ آلاف السنين، وكلما ناديتك أنْ خفف عني العبء وقل عن نفسك كيف أنت، ضَلَّلْتَني، وبتضليلك تضلّل عالماً كبيراً... قل لي: من لمَّعك وقدَّمك في براءة الأطفال وأنت مَن أنت؟؟

لأني أُجلُّك وأحترمك ـ أيها التاريخ ـ وأجد فيك عزائي وعزاء قومي العرب، سألت نفسي قبل أن أطرق بابك، وأطلب الإذن لي بالدخول عليك: أأنا طارقُ ليلٍ متسترٌ بالظلام، مزوِّرٌ لنفسه، أم ماذا؟

أربكني السؤال، فلحقت بي على عجل أيامي الأوَل، وقالت لي: لا تزوِّر نفسك فتسخر منك خاطراتك، ويسخر منك قارئك، قل الحقيقة عن نفسك ومَنْ تكون؟ ومَنْ مُعلّمك في هذه الحياة؟ ما مدرستك وجامعتك؟ أعطه صورةً عن ملامح رحلتك مع العمر، أملِ عليه أنتَ قبل أن يمليَها الآخرون، فتتداخل الأخبار عنك بتداخل مصادرها...

نعم ما أكثر الغافيات من الذكريات في أعماق النفس، فإذا كنتُ اليوم أتحسسها على ضوء خافت من الوعي، على طريقي الخاصة، فهل تعذرني إذا هي مشت هذه الخاطرة على عكاز بالية، أتحسس بها طريقي إليك.

سأمشي وأناديك أن تعالَ معي إلى قريتي في قلب الجزيرة العربية، وكن نزيلاً على أهلي في القرية أو في الصحراء، فهم قوم كرام، يُقرون الضيف، ويحملون الكلّ، ويُكسِبون المعدوم، ويُعينون على نوائب الدهر... خصائص ورثوها فيما ورثوه عن أسلافهم. وللذكريات قصص مع القرية، وأيام القرية في رحلة العمر، فقد

نزلتُ ضيفاً على الحياة فيها، وسيّرتني أقدار اللّه إلى حيث شاءت.

ماذا أحكي لك عن حياة عشتها في قريةِ نسيمُ الصَّبا نسيمها، أمانينا وأحلامنا فيها فَرِحةٌ فرحَ الطفل الصغير بصدر أمه. فأمنا القرية علمتنا شيئاً من مكارم الأخلاق والبِر فيما بيننا. نتشاجر بأدب، ولكن لا نتقاطع ولا يجفو بعضُنا بعضاً. نعطي الصدارة في القرية لمن يستحقها، لا ينافس القصيرُ الطويلَ. نتحمل بصبر ومشقة عناء العيش، لا يصل قُوتُنا إلى بيوتنا إلاّ بعد أن يختلط بالعرق والجهد الشاق، فلا كسل ولا بطالة ولا اتكاليَة. كل القرية كادحة وحارثة للأرض، ومُسقية لها من العرق الغزير، رجلاً وامرأة. جهد متواصل من قبل شروق الشمس إلى ما بعد غروبها، نضع البذور في التراب ونسقيها بأمانينا. في بعض الحالات يحل الإنسان محل الدابة التي تُخرج الماء من البئر العميقة.

وحياة كهذه، عاندتْ في صبر واحتمال الهروب من أرض الآباء والأجداد إلى خارج الجزيرة العربية وعاندت الفناء. ألا يمكن أن نتذكرها لنرى عَبرَ ملامحها عصر النفط؟ شهادتي عليها هنا شهادة أحد أبنائها، عاشها ما قبل النفط.

وما هذه الإشارة العابرة عن الجهد الذي لاقاه مجتمع القرية والصحراء في الجزيرة العربية إلاّ مسار بها مع التساؤلات، ماذا يظن شاب اليوم؟ أيظن أن مجتمعاً، هذه حاله، قانط وشحيح؟ أبداً، ولا وألف لا... ما أكرمَ

ذلك الإنسان المكبّ على محراثه، أو الهائم في الصحراء يرتادُ الغيثَ لمواشيه! ما أسخاه بكدحه وعرقه على عابر السبيل أو جاره الفقير! مجتمعٌ يؤثر على نفسه ولو كان به خصاصة، يذبح شاته لضيفه، وهي التي يحلبها لأولاده، إذا لم يجد غيرها. أهمُّ شعار داخل البيت أو خارجه في قلب الصحراء، تتمثله المرأة والصغير والكبير، صباح مساء، الحديث الشريف: «ويل لمن بات شبعان وجاره إلى جنبه جائع وهو يعلم!!».

ولعل هذه الصورة عن قريتي، وما حولها من صحارى، هي صورة لكل قرية في جزيرتنا العربية. وقد يسأل من يسأل: كيف نفكر، وبماذا نفكر، وإلى أي حدّ وصل بنا تفكيرنا؟ وعلى يد مَنْ نتعلم ونتلقى المعرفة؟؟ والمعرفة هنا نسبية. نفكر ولكن لا أذكر أن رأسي أو رأس صديقي أو جاري شكا الصُداع من شدة التفكير. رؤوسنا خفيفة على أكتافنا، لا تثقلنا بالهموم والأرق، كل شيء فينا معتدل آمن، وآمنة معه قلوبنا من النوبات، لا نعرف شيئاً اسمه فلسفة ولا شعارات ولا أفكار مضلّلة، بل قرآن كريم وسُنة شريفة. لنا شيخ واحد نلتقي حوله مستنداً إلى ساريته في مسجده، نتجمع من حوله، نستمع إلى وعظه وإرشاده وفتاواه في شؤون حياتنا اليومية البسيطة. عباداتنا قائمة على الترغيب والترهيب. وما بين الأمل باللّه والخوف والرجاء هانت علينا متاعب الحياة ومصائبها.

قليل منا من يقرأ أو يكتب، فلا مدارس ولا معلمون، في القرية كتاب واحد نتعلم فيه القرآن الكريم والكتابة البسيطة. القرية بأكملها تنام حين تنام شمس النهار، وتستيقظ مع الصباح. وأجمل أيام القرية ولياليها يوم يتهادى القمر مضيئاً في ليلة التم. الليل الدامس في القرية أو الصحراء ينافس فيه وجدانُ العاشق عابدَ القرية وتقيِّها، هذا في مناجاة الحبيب، وذاك في مناجاة خالقه... والإنسان المريب، إذا وُجد، يكره القمر ولا يحبه إلاَّ هلالاً، يخافه بدراً ويخشاه على أسراره!

قصص القرية وسَمَرها يطارد الأشباح، ويرفعه الخيال إلى ما فوق سقف البيت. كل شيء بسيط. العائلات تلتقي عند غروب الشمس عائدةً من أعمالها، تجلس في فِناء الدار تتنفس الصعداء، يحكي كل فرد ما لاقاه في يومه وما علق بذهنه. من أسعد أيام القرية يوم يتزوج عمرو ابنةَ جاره زيد وتحتفلُ القرية بالعرس، نساءً ورجالاً، والاحتفال شيء بدائي ونسبي للغاية... مصدر ذلك بساطة القرية والظروف التي تعيشها... فكسرى وحاشيته وتقاليده وعاداته ما عرفتهم القرية ولا الصحراء!! كانوا خارج الحدود!!

عَزَلَتنا ظروف الحياة عن العالم، ما لأحد فينا مطمع. صورتنا صورة الزاهد الذي عزف عن بهارج الحياة وميّز نفسه وميّزته طبيعته عما هو مألوف. لا أنافق القرية بهذا فأخسر هدفي من هذه الخاطرات والذكريات، وهذا لا يعني أن مجتمع القرية قد برأته الحياة من النقائص

والسلبيات، فالإنسان هو الإنسان... تصوغ بيئته أفعالَه في القرية أو المدينة. غرائز الإنسان واحدة، ورغباته كذلك، ولكنَّ حياء القرية ونقاء سمائها وترابها وتقاليدها هذَّبا طباع ابن القرية وجعلا كلَّ شيء هاجعاً في نفسه. لا مغريات، كل شيء محتشم وإذا وُجد فشواذ.

نعم ـ أيها التاريخ ـ مثاليات الإنسان وشرائعه لم تجعله مثالياً مطلقاً، فما معركته مع نفسه وصراعه مع الحياة والنوازع النفسية إلاَّ أشد ما يكون الكدح والمكابدة والإحساس بالتناقض والتداخل مع التسامي والتدنّي.

نحن أهل قرية، وأرباب صحراء، إذا هطل الغيث، وازّينت الأرض وأربعث، خرجنا إلى الصحراء، إلى منازل قيس وليلى، وعبلة وفارسها، وحاتم الطائي وماوية، مَنْ منازلهم في صدغ الجبل، وهناك أرى الذكريات من حول الرسوم والأطلال تنادي عليك أنْ ماذا معك عني؟ أعليّ خوف أن تبتلعني مدنيّة العصر فلا يراني حفيد ولا ابن حفيد؟

ويوم نبني خيامنا، أيها التاريخ، في قلب الصحراء وتختلط خيامنا بخيام ابن عمنا البدوي، مَن هو أصل القرية وساعدها الأيمن على حماية الوجود، ندير الحوار مع الرسوم والأطلال، وشبابنا وشاباتنا يسائلوننا أن قصّوا علينا أخبارهم، فيلذ لنا أن نحكي لك طهارة القوم في قيس وليلى. وإذا قدّرنا أنهم حفظوا الدرس، وأدركوا معنى الطهارة، أخذناهم إلى منازل عبلة

وفارسها، وحدّثناهم عمّن يكون هذا الفارس، أفهمناهم أن قومه أرادوه عبداً بلا حرية فحرره حبه لعبلة، حرره سيفه ورمحه، وقاتَلَ أعداء حريته إلى أن أخضعهم فصار سيدهم.

وقبل أن نذهب إلى كريم العرب سألنا شبابَنا من المستمعين: هل حفظتم الدرس، هل وعيتم المعنى العظيم لحرية الإنسان وعتقه من العبودية إلاّ للّه؟ هذا هو فارسكم، فارس عبلة... وهناك بين جبلي أجا وسلمى أخذْنا شبابَنا إلى منازل الطائي لنعلمهم كيف يكون الكرم والسخاء. وللحقيقة فعمنا البدوي في الصحراء وأخونا أكثر منا انفتاحاً على الضوء وعلى الحرية، نحن أرباب القرية، خيمته أو بيته من الشَّعر ساعَدَاه على ذلك. هو طائر بجناحيه في الصحراء.

المرأة في الصحراء مساوية للرجل، ترد المياه وحدها، وتسقي أغنامها أو إبلها، تسرح في الفلاة مع ابن الجيران لا تخشى بوائقه ولا تخافه، تحميه وتحميها من الضلال أخلاقُ العشيرة وتقاليدها وقيمها الدينية. إذا أحبت أعلنت عن حبها في عفة وطهارة، وهو كذلك. فقصص الحب والغرام والشِّعر في الصحراء ليس عليها سقف من الطين أو جدار يستر ما وراءه.

الحرية المحتشمة في الصحراء داخل القبيلة متاحة للجميع، فلا استبداد ولا رأي متسلطاً. إذا اختلفوا على شيء حكّموا فيه أعرافهم[9] على يد محكّم. طبيعة البدوي الغزو، كل قبيلة لها وطن خاص بها، ولها تقاليد،

تغزو ولكن لا تغدر ولا تمس الأخلاق. علاقة البدوي بابن القرية القرابةُ والود أو بالأصح المنفعة. وكل قرية تدفع لفرد من القبيلة إتاوة قد تكون بسيطة جداً لا تتعدى رمز الصلة فيما بين القرية والقبيلة، وهذه كافية لأن تحمي القرية وقوافلها.

لا أدري، أيها التاريخ، هل أخذتني الذكريات معك في هذه الخاطرة إلى أن أكون شبه مؤرِّخ... وهذا ليس هدفاً لي؟

غير أني أردت أن تعرف البيئةَ التي وُلدتُ فيها ونشأتُ، لتقرِّبك من معرفتي. سأودّعك وفي غدٍ نلتقي.

9. كان هذا قبل قيام الدولة السعودية.

بالأمس أعطيتك ـ أيها التاريخ ـ لمحة بسيطة وخفقة من خفقات الذكريات عن ظلال القبيلة أو عن ظلال القرية. واليوم وقبل أن تتساءل أين الدولة ومتى أتت ومتى غابت أقول لك:

الدولة قامت في وادي حنيفة (الدرعية) فيما يقارب عام 1150هـ. هذه الدولة تعرضت لفجوات يضيع فيها الأمن بغياب السلطة السعودية. حصل هذا في الدولة الأولى وفي الدولة الثانية، ومعنا اليوم الدولة الثالثة، دولة الملك عبد العزيز. وما قصصتُه عليك هو من هذه الثغرات، وهذه الأمور مرجعها كتب المؤرِّخين لهذه الحقبة.

أما ما يعنيني وأود أن تعرفه عني، فحياتي، أيها التاريخ، كحياة غيري من أبناء قريتي، لا أحد أحسَّ بميلادي، ولا أين كنتُ، ولا من أنا، ولا ما ينتظرني. لا أظن أن أحداً فرح بي أو حلم بأني قد أكون حلماً من أحلامه الجميلة غير والدتي أو والدي. ربما قدّر والدي أن أكون من رعاة إبله أو الكادحين في مزرعته ونخلاته.

وهكذا مشت بي الحياة على وعورة الطريق التي كُتبت عليّ، كل شيء محسوب، لا شيء نفكر فيه غير لقمة العيش وقطعة من قماش. تفكيرنا بدائي، وإذا فكرنا فلا نذهب بعيداً ولا نتجاوز به حدود البيت

والجيران والأهل، وإذا اتسع مع معركة الحياة فلا يتجاوز مراعي أغنامنا وإبلنا.

مات أبي وعمري يقارب ست سنوات، وذقت مرارة اليتم. إلاَّ أن يتيم القرية يكون له منها ومن أهلها تعويضٌ لليتيم عن والده أو أمه. ذلك المجتمع البعيد عني، مجتمع القرية، لم يعزلني عنه النفط أو يُحرقه من ذاكرتي فهو أكرم ما أحتفظ به وأعتزّ، وهو الذي أعود إليه مع نفسي كلما ضايقتني هموم هذا العصر...

قد تسأل أيها التاريخ: متى حملتَ القلم ومتى خرجت من حدود القرية، إلى ما هو أوسع منها وأكثر إغراءً لشابٍ مثلك؟ فأقول لك: خرجت وعمري يقاربُ سبع عشرة سنة، متطوعاً في خلافات بلادنا مع اليمن. ركبتُ جملي، مثلما ركبه أمثالي من المتطوعين، ومشيتُ آلاف الأميال على ظهره شهوراً، ذهاباً وإياباً. وحين عدتُ إلى بلدي شعرت أني عدتُ ومعي تجربة وآمال تجاوزت بي حدود القرية وتفكير القرية. تبدّلت أشياء كثيرة في نفسي من رحلة الحرب واختلاطي بأعداد كبيرة من الرجال المتطوعين. وطبيعة الحرب والحديث عنها وعن أسبابها ومسبباتها والتضحيات من أجلها لا يكادان ينتهيان بين المحاربين، يقع الخلاف في الآراء ويتعثر الوعي حتى لا ندركَ شيئاً من جدلنا وحوارنا غير أننا قاتلون أو مقتولون... ما سمعتُ واحداً من المحاورين يتساءل: لماذا نقاتل؟ ومن نقاتل؟ أهم أعداء أم إخوة؟ كل ما نفعله هو شحنُ بندقيتنا، وشحن

نفوسنا بالحقد والكره لمن سنطلقها عليه حين المجابهة. هذا هو مفهومنا، يومها، وهو مفهوم قالت لنا رياض الملك عبد العزيز عنه إنه خطأ، لقد امتدت يد الرياض إلى يد صنعاء اليمن فأفرغت البنادق وأفرغت الأحقاد، وتمثلت قول الشاعر:

إذا احتربث يوماً فسالث دماؤُها

تذكرتِ القُربى ففاضث دُموعُها

قد تسأل، أيها التاريخ، ماذا بعد العودة؟ وهو شيء طويل جداً، الحديث عنه لا يعني من أنا، وما هي همومي وأفراحي أو نهوضي وتعثري... دخلتُ الوظيفة الرسمية بأمر من الملك عبد العزيز، رحمه اللّه، تسلَّمتُ العمل الذي كان يقوم به أبي، ثم أخي حمد، بعد أن نُقل أخي إلى عمل أهم وأكبر في القصيم.

بقيت من عام 1356هـ في عملي في المجمعة إلى عام 1381هـ، حيثُ نُقلتُ إلى الرياض وكيلاً للحرس الوطني السعودي، وتدرجت بي المسؤولية حتى رُفِّعتُ إلى المرتبة التي أنا عليها الآن، وهي نائب رئيس الحرس الوطني المساعد لسموِّ الأمير عبد اللّه بن عبد العزيز[10].

نعم، ما أجمل أحلام الشباب إذا هي لم تضاجعك فيها نزواته وطيشه!! كنت في أيامي مع الشباب حالماً، الأماني هي أنيسي وجليسي، كنت أحلم وأنتظر الظرف الذي يفسّر لي الحلم أو الأحلام، وحين يتقاصر بي الليل، ويميل بي إلى الضجر، ويطول نهاري، لا أكتفي

بأحلام الليل بل أحلم أحلام اليقظة. ما كان معي غير الأحلام، لم أقرأ شيئاً عن الحظوظ ولا عن الأقدار، قطعتُ مع أيام الشباب رحلةً قصيرةً متسائلاً: إلى أين أنا ذاهب، ولماذا أحلم، وبماذا أعاشر الأماني؟ تراءت لي أحلامي في طريقي إلى نفسي أنها أوهام تلقيها على النفس غبياتٌ أعجَزَها السقمُ عن السير في طلب الحقيقة والواقع، فراحت تحلم وتضلل بهذه الأحلام شاباً قليل الخبرة بما في ذاته، وما عنده من عالمٍ غير عالم الأماني والأحلام.

في يوم كنت فيه حائراً قابلني على الطريق الوعرة عابرُ سبيل فقال لي: من أنت؟ من تكون؟ ما أمنياتك؟ فقلت له: نَفِدَ ما عندي من أمانٍ وأحلام وها أنذا أطارح الطريق الوعرة التي أسير عليها مناجاتي: إلى أين أنا ذاهب، وماذا ينتظرني في أقصى الطريق؟ تبسَّم لي هذا المتسائل، فقلت له من أنت؟ ولماذا هذه الابتسامة؟ قال: أنا الحظ... تركتك لأمانيك وأحلامك فترةً طويلة، وحين اعترفتَ لي بأن الأحلام والأماني هي التي جئتَ ماشياً حافياً على هذه الطريق الوعرة هارباً عنها، لحقتُ بك لأرافقك على هذه الطريق الطويلة وعسى ألا نفترق! ولو افترقنا وتخليتُ عن مصاحبتك، لسبب من الأسباب، التي كثيراً ما تتسلل إلى ذهن الإنسان الأحمق الذي ينسى أو يتناسى دور الحظ في حياته وينكر لأهل الفضل فضلهم، لعدتَ إلى ما كنتَ عليه، وبقيتَ حافي القدمين عاري الكتفين!! وها هوذا معي يلازمني في

خدمتي الطويلة في دولة الملك عبد العزيز وأبنائه فيما يقارب سبعين سنة.

هاجسُ الحظ في حياتي أشكر اللّه عليه، فهو معي عشرات السنين مع العمل الرسمي، كما قلت، وأرجو أن يبقى معي ساتراً لعوراتي ولإنسانيتي الضعيفة التي لا تتعالى على عطاء اللّه وتدّعي أنها وأنها... أبداً، أنا فقير إلى اللّه، إلى رحمته، إلى أن يبقى هذا الحظ معي حتى يوصلَني إلى مدفني ويعود إليك، أيها التاريخ، حاملاً إليك ذكراي بالخير!

أنا لا أتجاهل الأحلام ودورها في تحقيق الأماني، لكنها أحلامُ الرجال، أحلام العقول، أحلام التفكير السليم، أحلام الإرادة التي لا تتراجعُ أمام الفشل بل تعمل إلى ما لا نهاية له. فأحلامُ العلماء هي التي أوصلت الإنسان في هذا العصر إلى الفضاء، ومن الأحلام ما يأتي جميلاً يُسعد الناس، ومنها ما يأتي أبشعَ من الكوابيس.

أما أنا وأمثالي، فماذا تأتي به أحلامنا وأمانينا، إذا لم يأتِ الحظ ويأخذ بأيدينا ويسلمنا لفرصة أو مناسبة ويقول لها: استوصي به خيراً، فإنه أمانتي عندكِ؟!!

ولمن يرتاب في هذا الذي أقوله فليُحضز قلمه وأوراقه ويركبْ جَمَلَهُ ويمشِ في أرض العرب ويسائل كل من قابله: أأنت من أرباب الحظوظ أم من العلماء؟ وإن قال لك إني من العلماء [11] وضنث به كبرياؤه أن يقول: إني من أهل الحظوظ، فقل له: أين معملك؟ ماذا

تفهم عن تاريخك، عن حضارتك، عن قيمك؟ ثم قل له أيضاً: ماذا تفهم عن علوم العصر وتداخلاته السياسية والاقتصادية والاجتماعية؟ سائله ولا ترفق به، لعل كبرياءه ترق وتلين فيعرف قذره!!

10. إني في هذه الأوراق مع التاريخ. أما ما يعني علاقتي مع سمو الأمير عبد الله، فلها أوراقٌ أخر. وقد قضيت مع سموه حتى الآن ثلاثاً وأربعين سنة، غنية بمكارم أخلاقه.

11. العلماء هنا علماء الفضاء والمادة، أما علماء الدين وفقهاء المسلمين فدورهم غنيّ عن التعريف.

29 ـ أفتش عن هويتي

ليت لي ـ أيها التاريخ ـ مع القلم ومجادلة الورق والأحداث ذكرياتٍ أستريح فيها من عتاب الأيام!! عبرت بي الحياة أتعثّر في قيود الذات. أوقفتني سيدة البيت الذاتي وقالت: لا تمشِ، فإلى أين أنت ذاهب؟ قلت لها: مللتُ البقاء أتسكع في أودية النفس، اتركيني أخرجْ إلى الفضاء، إلى عالم اللّه الواسع، أفتش عن هويتي كإنسان. اختلطت عليّ الصور فيما بين الجَمل والجَمل، والناقة والناقة، والوحش والنعاج. طوَّحت بي في هذه المتاهات المخيفة مرآة العصر، وما فيها من غامضٍ لو أغمضتُ عيني عنه وحجبتُ صداه عن أذني، لانطفأت الشموس وخسف القمر في ذهني، ولما رأيتُ شيئاً من مهدي إلى لحدي.

ولا أدري، وقد دنا البعيد، ألهذا الذي يحصل في الزمان والمكان، في الأرض وفي الفضاء، ميقاتٌ مع العصر أخذ العلم يكفكف أطرافه ويقيسه بالمقاييس الضوئية؟ وأن جملاً ركبه الإنسان منذ آلاف السنين أو ملايينها أناخه عصر ريادة الفضاء على الدرب الطويلة والوعرة وقال له: ليس بيني وبينك نَسَب، فأسفاري غير أسفارك؟

ولا أدري، أيها التاريخ، متى يستنّ الحاشي الصغير[12] ويُفارق ضرع أمه؟ فضرع الحياة مليء بالري في الأرض وفي الفضاء، ولكن أكثر البشر لا يُحسنون

الرضاع، وهذه مشكلة الإنسان. فالذين رضعوا من ثدي الأسرار الكونية والإنسانية هم مَن يجادلوننا اليومَ مِنْ بعيد. والجدل هو جدل العقول وتنافُس الأحصنة في ميدان السباق العلمي.

أطرح الأمنيات، وعقلي يَقِظ لها غير راقد. نعم، أيها التاريخ، لا تظنَّ أني مفتون برواد الفضاء في كل ما قلته، أبداً، أنا مفتون بما معك من مكارم الأخلاق والقِيم، فتراث أهلي وحضارتهم هو ما أخاف عليه ذئابَ الفضاء. إذاً، كيف لنا، نحن أهلَكَ، أن نقول للعالم المعاصر كلمة «لا» وهم لا يعترفون لنا بجملة معترضة؟ ولا أدري ماذا وراء الأفق؟ ليتني أقوى على استشرافه، كما استشرفتْ جدتي زرقاء اليمامة الخطر الآتي إلى أهلها من بعيد!!

أسقي الآن أوراقي قطراتٍ من الألفاظ، مرارتُها تُبكي حلْقَ القلم، وتذرف الدمعَ راكبةُ الجمل في دروبٍ وعرة وفي أيام غير أيامها؟

تتلاعب بي رياح القلق، وهي رياحٌ لم تكن من رياحي أيام كانت تُغني بلابلها وتشدو لي على أغصان شجرة النفس المورقة! أسامر أوراقي في هزيع الليل، بعد أن أخذتني ظروف الحياة بعيداً عن مسامرة النجوم في قلب الصحراء. ولا أعرف أللنجم اليوم من يُسامره في أودية نجد ومراتع عبلة وأخواتها؟ أم أن نجوم السماء غارت بسماتُها؟ وأن أيامها مع المسامرين لها من العشاق والشعراء الحزينين صاروا إلى خبرٍ من الأخبار في

أوراق العصر؟ لا أدري، وليت الأماني والأحلام الجميلة تزور الإنسان اليوم لتسامره، وهو هاجعٌ على فراشه، يُكابد مشاكله وهمومه، من عصرِ ضايقه حتى في فراشه. لا أقول هذا من ترف الألفاظ، ولكن لي تجربة مع مسامرة أحداث العصر على فراش نومي، لو حكيتها لك، وكيف تشكّلها المعاناة في صورٍ من الاحتمالات والخوف على الكريم فينا والأصيل، لما أذخَلتَها أوراقَك!

فكثيراً ما تجادلني زائرة لا خفر عندها ولا حياء من عاهرات العصر، يحملها إليّ في غرفة نومي مجادلٌ لا أعرف له نَسَباً ولا قبيلة، ولا أدري، أين النهاية[13]؟

أخاف ذئابَ العصر وأخشاهم على بداوتي وعروبتي وقيمي. أخاف العصرَ على ابنة الحي وأخشاه على أخيها، أخافه على ذكرى عبلة وفارسها وعلى كريم العرب، أخافه على التقي سعيد بن جُبير وعلى الفضيل بن عياض، أخافه على من قال: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟». أخافه على الرحمة المهداة لكل البشر، أخافه على الأمس وما قبله. أخافه على مراتع صباي، أخاف أن تُكدّر رياحُه نسيمَ الصَّبا! ما أكثر ما أخافه عليه من هذا العصر!! أخاف أن يحوّل كل شيء إلى هوامش بسوء الفهم لقومي وأهلي العرب.

ولا أدري، وأسفاري مع هذه الخاطرات والمخاوف على أوراقي، هل أوحت إليّ بشيء أمليه عليها؟ أتساءل من فوق قمة الجبل، الذي منه تساءلت جدتنا زرقاء اليمامة، هذا ما أشعر به، ولكني أخشى أن ما أمليته

على أوراقي آتٍ من شيخوخةٍ ضاق صدرها، فجاءت الذكريات تبكي وتذرف الدمع عليها، فارقتها وهي شابة، فجاءت لتودِّعَها الوداعَ الأخير وتقولَ لها: هذه هي الحياة، ذكريات وأطلال ومدافن وسُرى وراء المجهول!

12. رمز الشباب. والحاشي: ولد الناقة الصغير.

13. يعني التلفاز.

30 ـ لا أدري أجفّت سواقي تاريخنا فغارت؟؟

لا أدري ـ أيها التاريخ ـ والإنسان في هذا العصر فتح شيئاً من جيب الغموض في ظواهر الحياة، وأخذ يراجع حساباته مع الزمان والمكان والكون وأبعاده، أسيقبل بنا أن نعايشه في كوكبنا الجميل بسلام واحترام؟ أم أنه سينفينا إلى باطن الأرض ويهيل علينا التراب؟ أخافه، وأخشاه على مساجدنا وأمننا واستقرارنا، فهو عالَم فاجأنا بمفاجآت علمية، اغرورقت منها عيون الحالمات من بنات الذهن عند ابن الهيثم والكِنْدي والبيروني والخوارزمي وإخوانهم. خاطرات حلمن عندهم منذ مئات السنين برحلات العصر، ولكن ما أتعس إنساناً تأتي أحلامه الجميلة وسط عالم يحتكر الأفكار!!

حائر لا يدري أين طريقه مع الورق، فالذين أخذتهم أسفارهم مع أجنحة الخيال لستُ منهم. أمرُّ على أوراقي، ومعي همومي أكابدها، أقف أمامها أسائلها: هل من أمل في أن تحملي عني ثقل الهموم؟ تعود إليّ أسئلتي دون جواب. أخرج إلى الشارع العام لعلّي أعود منه، ومعي صورة أو صور تعرضها لي مرآته. وعلى مدخل الحَيرة أقف تحت جذع الشجرة اليابسة عندي أسائلها: ماذا وراءك؟ فترتعش مذعورة خائفة من سؤال قد يحرقها. فما أدخل على أوراقي أسراباً من التساؤلات غير خاطرات لم يكنّ من بنات حيّنا، هن معي في

فراشي جوابات في الفضاء يقتحمن جدران غرفة نومي ليؤرقنني ويؤرقنَ ورقي...

أمد يدي إليك، أيها التاريخ، لتُقرئني أخبارك، فإذا همومي وأوجاعي تضاعف التساؤلات، وتدور المعركة بينك وبين الأجنبيات من الخاطرات، وأنا أرقب المعركة وأردد: أين مكاني اليوم في التاريخ؟ هل ضعتُ عنه، ورحت هملاً في بيداء الجهل، لا قوسَ بيدي، ولا شجرة زرعتُها لأتظلل بها؟

وهنا لا أدري أجفَت سواقي التاريخ الذي لنا فغارت حضارتنا؟ لا أتساءل، والقنوط هو الجواب، أبداً، لا أيأس ولا أقنط، والكون كله ونظامه البديع قائمة علي منه المسؤولية الكبرى. إلاّ أني أشعر أن كوني الذاتي مصاب بالخلل، أرهقته الجهالة، وأبكته دمعاً ساخناً على شيخوخة لا حول لها غير البكاء والأسى. عاجز أن أبني ولو واحدة من علامات الطريق التي لا حدود لها في عالَم الذات. أعيش داخل الأطلال والخرائب النفسية، والعالم المعاصر من حولي في تصالح كبير مع النفس. كلما ساءلها أن تعطيه أسرعت إليه بالعطاء. قال لها: البحرُ يوحشني، والفضاءُ يرهبني، والقمرُ يؤنسني. فقالت له عائلته الذاتية: أعِدَّ نفسك للرحيل، فسآخذك بسلطان اللّه إلى هذا الذي يؤنسك، إلى القمر!!

ولا أدري، أيها التاريخ، كيف الطريق بنا إلى المنافسة؟ هل من أمل؟ يسائلك بدوي أمله في ابنه وابن أخيه العربي وابن عقيدته، سائر به إلى الأمام لا ينوي الرجوع

أو التراجع. فغيوم النفس لا يبدّدها عن مطالع النجوم والأقمار والشموس غير الأمل والتفكر والتطلع إلى مناجم القوة الروحية والمادية في الإنسان.

نعم لا أشعر أبداً أن مفاهيمنا جريحة، أو سيقان فكرنا كسيحة، ولكن مدربنا على السير فوق التراب ما قال لنا: نافسوا الطير واكسروا جناحه!! لم أقرأ في ورقك فيما بعد عباس بن فرناس، لمدرب واحد علامةً واحدةً من علامات الطريق إلى الفضاء وأسرار هذا الكون البديع. ولا أعرف لو أوقفك اليوم ابن حنبل العصر وأخذ يجادلك: ويقول أفتيتُ للعقل بالرحيل إلى الفضاء، ماذا ستقول له؟ أظنك ستردد قول من قال:

سِز إن اسطغتَ في الهواء رويداً

لا اختيالاً على رفات العباد

ولكني أخاف أن يعترضك في طريقك إلى مدرسة العصر غبيّ جاهل، فيضعَ القيد في أرجل جملك فيبرك عاجزاً عن السير. أنا بهذا لا أعظك كيف تسير، وكيف تتّقي الأخطار عن نفسك، فذكراي مع واعظ القرية، الذي جلستُ تحت منبره في اليوم البعيد، أدخلث على نفسي السكينة، حين ضايقتني ضائقاتُ الهموم. أمَلي أن يكون واعظُك في هذا العصر من روح قوله تعالى: {أفلا تعقلون} ؟ {ويتفكرون في خلق السّموات والأرض} ... لتسير بنا الحياةُ المعاصرة سيراً رُخاءً، آمنة معه القيم والمُثل العليا.

ما أجمل الذكريات حين تأتي، ومعها الشباب والأمل والصديق! هي بعيدة عني الآن، ألبستني العِمامة، وعمري ست عشرة سنة، ومثلما ألبستنيها ألبَستها صديقي وقالت لنا: إلى الصحراء نطُف في أرجائها: نُسبِّح ربنا ونكبّره!! وكان معنا الشيخ الجليل ابن الجوزي يلقي علينا مواعظه، ونحن نبكي تحت منبره شباباً، ملابسنا طاهرة، نتذوق الجمال ونحسّه داخل نفوسنا ربيعاً، برداً وسلاماً على أمانينا ومشاعرنا. ذكرى بعيدة وجميلة مات صاحبي عليها، رحمه اللّه. أما أنا فتقلّبت بي الظروف والأحوال وخضتُ وحَل الحياة إلى الرُّكب!!

هذه هي الأقدار، أحمد اللّه عليها، وهذا هو الإنسان عندي لم يبقَ معه غير الذكريات، وفجائع الحياة، وعسر ما في يد القلب من جوع وفاقة!! نعم ليت الجوع في معدتي وليته يفري كبدي!! ويرميني طريحاً في العراء من دون غطاء وتصح لي سقيمات أسقمن عقلي وتفكيري! ولكن ليت! وليت غير مجدية!! ليتني لم أكن من أهل هذا العصر ولم أعرفه، ليتني متُّ مع أبي قبل النفط على شطآن الخليج قبل أن تمرّ به قوافل من الأمم دون أن تُزعج سمكةً واحدة فيه. ليتني لم أشهد انزعاجه وقتل الحياة فيه، في أيامنا هذه مع حريق النفط!!

31 ـ أغازلك آفاقُ الإنسان آفاقَ الكون؟؟

يوم أقف أمامك ـ أيها التاريخ ـ وأستأذنك بالجلوس وأفتح أوراقي في عالمك لأتعلم عليك، أشعر أني ابن من أبنائك، فأنت أهلي وتراثي ومعدني وأصالتي! إلاَّ أني أحس أن عندك مشكلة ربما تكابد حملها منذ آلاف السنين أو ملايينها، معقّدةً، الحساباتُ الزمنية فيها متداخلةٌ بين جيل وجيل. ونحن، جيل هذا العصر، أكثر الأجيال إحساساً باستقراء أعماق المشكلة وجَذولة الأرقام والحسابات الزمنية وأحداثها في أوراقنا، وهي أوراق حملناها إلى هذا العصر، وحملنا معها هويتنا ونسبنا في هذه الهوية التي قال عنها أحد أجدادنا:

ونحنُ أناسٌ لا توسُّطَ بيننا

لنا الصدرُ دون العالمين أو القبر

رحِمك اللّه يا أبا فراس!! أية صدارة وأي عالم؟

ولا أدري ما العمل؟ والعصرُ فتح جيب الغموض، في كثير من ظواهر الحياة، وصار يُجَذوِل حساباته في الأرض وفي الفضاء، وهي حسابات لا تخلع قلوبنا، فلا نخشى الهزيمة أمام كثير مما معك. ولكن هل نستطيع، نحن أبناءك، أن ننظّم حساباتنا التاريخية والحضارية والإنسانية التي معك في أوراقنا وأفعالنا؟؟ لا أدري، فأكثر ما معك شيء نخافه ونخشاه، كما لا نستطيع أن نقدمه إلى هذا العصر، لأنه قد لا يهضمه. كيف نقدم كثيراً من الشعارات التي تناثرت اليوم في أوراقك

وصارت إلى مواريث يدحرجها الزمن؟ كيف أقدّم هذا أو ذاك؟ كيف أقدّم كثيراً من المذاهب التي عليها علامات استفهام تدور من حولها التساؤلات؟

كيف أقدّم من قال:

خذي الدفَّ يا هذه واضربي

وغني هزارك ثم اطربي

تولّى نبي بني هاشم

وجاء نبي بني يعربِ

كيف نُقدّم من خانوا الأمانة وأساؤوا إلى القِيم والمُثل العليا؟ لي على دمشق الأموية بعض التساؤلات في تاريخها، وكذا بغداد الرشيد، وقاهرة المعزّ وقرطبة والحمراء، لي تساؤلات كثيرة عن كل من تجاوز على الحق، وعمّن قتل الخلفاء عمر وعثمان وعلي، رضي اللّه عنهم جميعاً، وعمّن قتل الحسين، وعَمَّن غالى وبالغ في الغلو في الإنسان، وعمن أهان العقل والفكر والشورى في أمور المسلمين. لي تساؤلات حول صفين ومعركة الجمل والنهروان، لي تساؤلات عن جنكيز خان وهولاكو، وكل ميراث يدحرجه الزمن من جيل إلى جيل بروائحه الكريهة ونسبه من الجور والظلم والعدوان. ولكن ليس عندي جواب... أسرع عن الدنو منه، وإن حاول أن يلحق بأوراقي.

ما أكثر ـ أيها التاريخ ـ من عَبَرَتْ بهم أوهامهم في متاهاتٍ من الضياع في هذه الحياة! ولا أدري، والحلقات التاريخية قد نَظَمت في جِيد الزمن سُبحاً من

الأحداث أكثر ما فيها حبات من الهموم والمزعجات، أين هي اليوم؟ أهي معك؟ أم أن أكثرها تناثر في الحلقات الزمنية؟ ومن هو شيخ الحلقة؟ أهو خرافة ابتدعها له في اليوم البعيد مجرم ضاق بالرسالة الإنسانية وبعبادة اللّه الواحد فاستهوته الغواية وسرحت بالماعز أفكاره المريضة في الفلاة؟ فالأنعام واحدة، إن كانت في الماعز أو في إنسان الغواية التي تتصدع منها كرامة الإنسانية وآدميته.

لا أدخل معركة ليس في طاقتي أن أخرج منها من دون جراح، فجراح أكثر ما في التاريخ دم وعرق، آذى بطوفانه الصورة الجميلة لما معك من قِيم ومُثل عليا. ولا أدري، ونحن اليوم في عصرٍ يغازل العقل فيه الكون ويجدول حساباته في آفاق نفسه وما كان خارجاً عن هذه النفس، أجاء سلطان اللّه يفي بوعده القرآني في قوله تعالى: {سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق، أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد}؟

فآفاق الإنسان اليوم غازلت آفاق الكون، وأخذت تنظم قصائدها فيه، وشاعر الفضاء غير من قال لها: «سيري وأرخي زمامه»، ونحن نكابد في معركتنا مع المجهول والكدح المضني استنطاقَ العقل وتدريبَه على اكتشاف شيء من أسرار اللّه التي لنا الحق الشرعي فيها. لكنه طال صمته، ولا أدري كيف تستنطقه جامعاتنا في المشرق العربي ومغربه؟ لا أدري لو أخذته جامعاتنا

وأوقفته على آبار النفط، ونادت عليها متسائلة: أبينكِ وبينه جفاء وخصومة؟ أأنتِ غاضبة عليه لعجزه عن اللحاق بك، قبل أن يلحق بك الأجنبي، أم أنه عاتب عليك لماذا تستعجلين المجيء، وتستجيبين لمن غازلك؟ لماذا لم تنتظريه، وإن طال الانتظار؟

تساؤلات تتذبذب على آبار النفط في المشرق العربي ومغربه. ولا أدري ماذا سيقوله المؤرخ، ويحمله التاريخ إلى الأجيال الآتية؟ أيتّهم آبارَ النفط بعشق الأجنبي[14]؟ أم يتّهم الإنسان في الوطن العربي أنه حاشية من حواشي الزمن التي تمر بالحياة وتخرج منها وهي لا ترى أبعد من موطئ قدميها؟ فالبعيد في الآفاق البعيدة لا تصل إليه غير رقبة طويلة من رقاب العقل، والعقل العربي ليس عندي مقياس لرقبته، لأني خارج الجامعة وخارج المدارس النفسية، لأني من سكان الخيمة!!

14. الجواب: ربما لو نطقت آبار النفط في بلادي بالجواب لقالت: أنا عربية مَصُونة بقيمي وببري بأهلي، بقيت دفينة في بطن الرمال والأتربة عمري كله، إلى أن جاء ولي أمري الشرعي وعقد عليّ عقداً لا تخاذل فيه ولا سلطان لأحد عليه غير سلطان ولي أمري الملك عبد العزيز... من قاتل دوني السباع وحررني من الأخطار!

تائه لا يدري ماذا عنده، وماذا رأى أو قرأ، سارحة به أغنامه الذهنية داخل نفسه في فلاة لا علامات عليها ولا مظانّ فيها لمياه غدير، تجافت عنها السحب وتركتها للظمأ.

أظنني ركبت في طريقي إليك ـ أيها التاريخ ـ جواد امرئ القيس وركّضتُهُ في الفراغ من نفسي، أحاول أن أخيط بإبرة من إبر ذهني ما تفتّق من ملابس عقلي، في خواطري إليك... ولا أدري أأنا خائط مدرَّب على الخياطة فلا ثُرى لي عورة من فتق واحد؟ أنا رجل أستحي، ألملم في كل أيامي عباءتي وملابسي على إنسان فيّ كله عورات... عذلتني ربة بيتي وعذلني صديقي: لماذا أنتَ والحياء على طريق واحدة؟؟ مِمَّ تستحي؟ أأخافَكَ قولُ الحكيم: «فكلُّكَ عوراتٌ وللناس ألسُنٌ»؟

أي نعم، ألا تعلم أن صاحب هذا القول فقيه من فقهاء المسلمين، رحمه اللّه. ألا ترى فيما قاله نظرة ثاقبة أطلقها وعممها على الإنسان؟ فهو فقيه من فقهاء الأمة، عُرف عنه كثير من التحوّلات في اجتهاداته الفقهية، ففي الحجاز له آراء واجتهادات، وفي مصر تضاعفت اجتهاداته، أمّا أنا فخشبة من أخشاب مهمَلة، يابسة على مفاهيمها ومن هذه المفاهيم عندي الحَيرة والغموض!!

قد تلتبسُ عليكَ الصورة أو الصور التي استقرت أو ستستقر في هذه الخاطرات فهي صورة أو صور ناشز، لا تريد البقاء داخل النفس، هي قلقة تظن أن في استراحتها على الورق أماناً لها من المعاناة، وما نشزت صورةٌ من بيتِ صاحبها إلاَّ ندمت وأصابها الفزع من عالم واقف على الطرقات لا شريعة له غير شريعة الغاب. وما أكثر ما أكلت ذئاب الغابة ناشزات الذهن!!

ولا أدري أيوم قامت، أيها التاريخ، هذه الناشزات من منامها وتداعت على ورق الكِنْدي[15] وإخوانه نادى عليهن الرقيب: إلى أين أنتن ذاهبات؟ تصايحن: إلى القمر! إلى الفضاء! إلى سلطان اللّه! ضحك الرقيب وقال لهن: عُدنَ من حيث أتيتنَّ، لا تخرجنَ على المألوف وحساباته مع العقل!! ابقينَ تحت منبر الواعظ!

بقين دفينات السنين الطويلة فتلصَّص إليهن الأجنبي فسرقهن من بيت الكِنْدي وابن الهيثم والبيروني والرازي وإخوانهم. أخذنَ يتقافزن في فضاء العقل واحدةً واحدة، كلُّ خاطرةٍ تُقصي أختَها عن المكان الذي تريد أن يكون لها منه منبر في الفضاء تغيظ به المغفّلات من ساكنات النفس عند الإنسان الخامل!

ولا أدري، أيها التاريخ، لماذا أفسحَ الرقيبُ لهنَّ الطريقَ في هذا العصر؟ أسائلك لعلي أجدُ عندك جواباً، فأنا نسخة من أوراقك وأجيالك، ولم أكن من أهل هذا العصر، لا أعرف إلى أي جيلٍ ترِدُني؟ ولمن أنا وريث ممن حَمَلَتْهم أوراقُك؟ لكني ربما كنت وريثاً لغبي ورث

الغباء عن غبيٍّ، وهكذا تزدحم مكتبتي بالكتب، وقليلاً ما وجدتُ فيها كتاباً متسائلاً عن مواقع النجوم!

ولا أدري أأنت في سيرك مع الأزمنة والدهور السحيقة لم ترفض سائبةً من سائبات النفس اعترضتك وقالت: خذني معك؟ أتساءل وتتساءل معي العظيماتُ من الأفعال والجليلات من القِيم والمُثل العليا، فالجوار بين فاسق العقل والفكر وسائبته وبين مكارم الأخلاق هو ما ترفضه أوراقي، وتأباه القِيم والمُثل العليا.

لا أدري أأحفر قبراً واسعاً كسعة جهلي لأدفن فيه الخاطرات والاختيارات ولا أخطو خطوة واحدة على الورق؟ أم أمشي داخل النفس وأسائل كل من مررتُ به: من أنت؟ لماذا أنت موجود معي أكابد حملك، تأسرني وتضع القيود في خطى إرادتي؟ أسائل مجهولاً عندي يمزق أحشائي. ولا أدري أأنا هَمَل في صحراء الجهل؟ لقد أفسدت عليّ غوغائيةُ الذات الهادياتِ في نفسي وعقلي وأفسدت عليّ تذوقَ جَمالِ هذا الكون العظيم.

نعم، لا أذهب في معركة الصراع العقلي والفكري، اليوم، مذهبَ خوارج النهروان عن هذا الكون البديع، وأقول: ليس لي غير ما يمشي عليه خُفُّ جملي أو حافر حصاني أو ماعزي، أبداً. فهذه العوالم العظمى إذا لم يحملْني إليها العلم على أكوام من الحديد فسيحملني وجداني وتحملني أشواقي إليها. فطالبُ الحقيقة ليس انعزالياً في قوقعةٍ من الفهم السقيم، أبداً.

تدقّ على أوراقي الآن، أجراسُ الإنذار في هذا العالم، فتلاحقني أسئلةٌ روائحها روائحُ الخزامى ونَفَل الروض[16] متسائلة: ألنا استراحةٌ في أوراقك؟ فرائحتُها من روائحنا. ولا أدري أآذنُ لها بدخول أوراقي؟ أم أردُّها إلى المكان الذي أتت منه؟ فأنا إنسان عاجز لا أحتملُ الأسفار البعيدة مع المسافرات من بنات الفكر الشاب. فالشيخوخة وضعت قيداً على فكري وعقلي ورمتني طريحاً على فراش الرحلة الطويلة، وهو ما أحاول الآن أن أضع أنيني منها وأنفاسي على ورقي!!

15. الكِندي (260هـ = 873م): فيلسوف العرب والإسلام في عصره، وأحد أبناء الملوك من كِندة، عاش في بغداد واشتغل بالطب والموسيقى والهندسة والفلك. ألّف ما يزيد على 300 كتاب منها: رسالة في النجوم، تحاويل السنين، الأدوية المركّبة، رسم المعمور ويتضمن خرائط وصوراً عن الأرض، و القول في النفس، المد والجزر، ذات الشعبتين وهي آلة فلكية، وكذا رسالة في عمل الساعات (عن الأعلام للزركلي، مج 8).

16. الخزامى ونفل الروض: نبتتان من نبات الربيع في الصحراء في نجد، لهما رائحة ولا رائحة أزكى العطور.

تتراءى لي ـ أيها التاريخ ـ واقفاً على مدخل القرن الحادي والعشرين، يسألك الماضي: ما الذي حصل في هذا العالم المعاصر؟ قد تتردد خطواتك عن السير لتستطلعَ الأخبار عن إنسان هذا العصر... قد يأتي إليك «عنترته» ويأتي إليك «باقلُه» ويأتي إليك مُخرّفُه، فتسائلهم: ما هذه المتغيّرات التي ليست في ذاكرة الماضي الذي معي؟ قد تظن أنهم آتون إليك من معاملهم، ومعهم أخبار الفضاء وصخور القمر ومراكب العلماء إلى النجوم. ولكن سرعان ما يخيب ظنك فيهم يوم يبارز فارس عبلة برمحه على ظهر جواده السلاحَ النووي، ويقف خطيباً باقلُ العرب مدلّياً لسانه إلى ذقنه، ثم ينظر إليك ويقول: أأنا أم من ألقى خطابه من فوق صخور القمر؟؟ قد يُذهلك ذلك فتتساءل: وما القمر وخطيبه؟ فلا تجد جواباً غير: لا نعرف، لا نصدق!!

لا تقفْ حائراً ولا متسائلاً، أيها التاريخ، فما تحمله معك من كريم يشغل بالنا الخوف عليه. ليس لنا ثقافة غير ثقافته، ولا أخبار إلاّ أخباره ولا قصص إلاّ قصصه، ولا أمجاد إلاّ أمجاده، ولا مخرّفاً إلاّ منه. نحن، كما تعهد، لم يتغيّر فينا شيء. أنِخْ ركائبك على أرض العرب والمسلمين وحُطَّ الرحال، فالعالَم الذي قد لا يستقبلك أو ربما يسخر منك، هو عالَم خرج عليك وعلينا وعلى هذا

الكوكب... وذهب بعيداً بسلطان اللّه يدرّب خطاه العقلية على السير في الفضاء.

نحن لا نعرف هذا العالَم ولا ندريه. ولا أظن أنه عرفنا أو حاول أن يعرفنا، يتعاملُ معنا بالمزعجات، حوّلنا عن مطايانا، وأحرق خيامنا وسلبنا حرية العيش الذي نعيشه بالكدح والعرق والمعاناة. صار يُنافس بعضنا بعضاً على ملابسه ونوع حياته، نُنافحه عن إفساد أخلاقنا وضمائرنا، نحن الأمة. نحن اليوم معه في معركة نرجو أن يخسرها، فهو لا يُريد لنا شريعة ولا حرية مع الاختيار. يُحاربنا في معتقداتنا وفي قيمنا ومثلنا العليا. نُريد أن تكون حياتنا له ظلاً، ديموقراطيته التي أطلقت للإنسان ساقية الرغبات وأباحت له المخزيات يُريد لها الانتصار على القِيم والأخلاق والدِّين، والدِّين بفضائله حارس لحرية الإنسان ومُطلِق لها القيدَ أن تخطو وتواصل الخطو في سبيل التعبير عن الفضيلة وكرامة الإنسان.

لا أحتاج، وأنا أحمل إليك هذه الخاطرة، أن أتساءل: ما هي الديموقراطية؟ إذا كانت الديموقراطية مُساءلة رجل الدولة وحاشيته إذا خرج على الشرعية، فهذه ليست ديموقراطية الغرب، ولكنها ديموقراطية الإسلام في الشورى. الدليل على ذلك قائم لا يُغالط فيه مغالط، وإن جنَد لذلك كل المنافقين. ماذا قال الخليفة عمر بن الخطاب، رضي اللّه عنه، بعد محاكمة ابن عمرو بن العاص وأبيه، أمير مصر، على ضرب ابنه لمصري بسيط

واعتزازه عليه بقوله: خذها وأنا ابن الأكرمين!! هذا الخليفة الجليل[17] أخذ السَّوط وأسلمه للمصري وقال: اضرب ابن الأكرمين! ثم حوَّلها إلى صلعة أبيه!! فإنه ما ضربك إلاَّ بسلطانه، ثم أطلق قوله المشهور: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟». هذا الرجل العظيم الذي تمثَّل فيه العدل في الإسلام ماذا قال له الرجل المسلم وهو يخطب؟ قال له: يا أمير المؤمنين لماذا عليك ثوبان ونحن لا نملك غير ثوبٍ واحد؟ أذخَلَ هذا التساؤلُ الخليفةَ عمر في محاجَةٍ علنية، لم ينقذه منها غير شهادة الشهود أنه استعار هذا الثوب.

أبعد هذا ديموقراطية؟ الإسلام مليء بمثل هذه الشواهد والأحكام التي حتى الآن والبشرية تتعثر دونها في حُفر من التسيُّب!! وعمر، رضي اللَّه عنه، هو الذي أقام مبدأ المحاسبة حين قال لأبي سفيان ـ ما معناه ـ: مِنْ أين لك هذا؟ قال: أعطانيه ابني معاوية، فقال له: أكان معاوية يملك شيئاً يعطيه لو لم يتولَّ أمر المسلمين؟ هاتِ ما معك إلى بيتِ المال!!

هذا هو الإسلام، فإذا انحرفت الممارسات والشهوات والجهل به عند المسلمين أنستعيض عنه بديموقراطية تبيح الشذوذ بكل أنواعه، وتقول للإنسان افعل ما تشاء، لك الحرية المطلَقة، فكل النزعات والرغبات نبيحُها لك ضمن ما نُشرّعه لك؟!!

يتراءى لي أن الورق أصابه الضجر من هذيان غير منظّم، فوضوي الخطى، لا يسقي الورق لظامئٍ من مياه الوعي، ولكن تزيده ظمأ على ظمأ خاطرات ضجر منها الورق، ويودّ لو يردّ هذه الألفاظ إلى جيوب الآتيات منها. نعم، يتراءى لي أنها بهذا تسائل الآتيات إليها من الخاطرات: مَنْ أنتن؟ مِنْ أي مكان أتيتن؟ لي أعوام طويلة أستقبلكن في الليل والنهار، في اليسر والعسر، دون أن أضجر أو أقيم عليكن احتجاجاً، تعسفن[18] في ممشاكن إلى خارج النفس. وتَضَغنَ على رقبته وسم العشيرة كما تضعنه على جملها، وتعسفن الصور وفق ما تردن، كما يُعسَفُ الجمل الشرود؟

ليت للفكر معدة تتقيأ ما يدخل عليها من خاطرات أو مذهب أو فكر رديء!! لا أدري لماذا لا نحاول أن نقف ليلاً ونهاراً مع اللحظات والساعات والدقائق أمام أنفسنا ومشاهد هذا الكون ليعظنا ويُعاتبنا ونسائله: لماذا هذا العتاب؟ ولماذا أنت بعيد عنا في النجم، في المجرّة البعيدة التي لا نراها؟ في الأسرار الدفينة في كل شيء؟ ولماذا تعابتنا والطريق إليك لم تعبّدها المعرفة عندنا؟ كل شيء مغلَق بيننا وبينك. إننا نحبك، ونتحرق شوقاً إليك، ولكن ليس بيننا شاعر واحد ينظم لنا القصائد في ليلى النجوم، فقصائدنا قصائد المجنون في ليلى هي اليوم رسوم وأطلال في أودية نجد!

أحس، أيها التاريخ، بصدى الجَمال الكوني وعظمته يقول لي: أنت لست بعيداً عني، لو عرفتَ نفسك

لعرفتني، كل شيء عندك ومعك، أعرض لك جَمالي ومرآي في آيات عظام ولكنك مشغول عني، وبماذا أنت مشغول؟ لا أريد أن أتعالى عليك، وأتجاوز العتاب الودّي إلى لومك وتوبيخك وتجريحك ونقدك وكشف عوراتك... أدعو لك إلهي وإلهك، خالقي وخالقك، أن يرحمك ويتسامح عنك في غربتك بين هذه العوالم الضخمة التي ما أقل من عرفها وتوادد معها من بني البشر!!

كم تساءلتُ: لماذا أنا مفتون بهذه العوالم ومطالع النجوم والشموس والأقمار؟ لا أعرف، ولكني أحس بشيء داخل نفسي يدفع بي إليها حتى في أحلامي، فهل مَنْ تضاجعه هذه الأحلام ولا تفارقه، محسوبةٌ أحلامُه على روّاد الفضاء؟! لعل هذا يُدخِل على قلبي السكينة فيرشدني إلى الطريق التي منها أصِل بوجداني!!

17. هذا يذكّرني برجل دخل على الملك عبد العزيز ثم قال: السلام عليك يا أمير المؤمنين. فقال رحمه الله: من قال لك إني أمير المؤمنين؟ أمراء المؤمنين هم الخلفاء الراشدون. إنك منافق، وطرده من مجلسه.

18. العسف: السَير بغير هداية، والأخذ على غير الطريق. والعسفُ له وجوه وتسميات عدة.

34 ـ أتساءل على الطريق

ما أضيق الطريق التي تمشي عليها خاطراتٌ أوحشتها داخل النفس أخلاطٌ من الهموم ومن الغافلات عن دورٍ كُلِّفت به في عالم اللّه الواسع!! والوحشة، إن كانت داخل النفس أو خارجها، لا أدري ـ أيها التاريخ ـ هل لها من أمانٍ على الورق فأستقبلها عليه؟ أم أني أخدعها وتخدعها معي الأوراق، فتُسلمها هذه إلى الأقبية الموحشة في نفوس بعض البشر؟ أتساءل على طريق لا أجد لي فيها مُجيباً... وليس أتعب من إنسان ينادي حمائمَ الدوح أن اسجعن لُمثعَب لحظةً واحدة فلا يُجبن!! فأنا والأوراق لا نحسن السجع، ولو سجعنا وغنينا فلن يطرب لنا أحد... فما أثار الهموم وهدّ بها عاتق الإنسان غيرُ الصمت أو نعيق الغربان، فلو هدلت لنا على سعف نخيل الذات حمائمُ كانت تغني لنا في اليوم البعيد الذي تركناه، لما كان لنا أوراق ولا شكوى ولا هموم!!

ألوذ في هذه الرسالة برواق من الخيال لعله يُخرجني من غرفة نومي، فما فيها غير هموم العصر ومتاعبه. والخيال عندي قد لا يذهب بي بعيداً عن أحلام اليقظة. يلذّ لي الحلم، وإن كان لا مفسِّرَ له غير الوهم. فالرحلة مع الخيال والورق وأحلام اليقظة رحلة ربيع، تبني لي فيه الذكريات خيمة من خيام العشيرة... أوحشتني في هذه الحياة الجميلة مزعجات الليالي والأيام، وكدّرت

حليب الرضاعة، فثدي الحياة المليء بالري والعطاء لا أدري هل أحسنا، نحن صغارَ الأحلام، الرضاعَ منه؟

لا أفهم شيئاً فأقوله، كل شيء غامض فينا، نحن أهلَ الدار، ولا أعرف ما السبب؟ لكني أتصور أننا أضعنا أنفسنا عن الطريق التي لنا، وصرنا دائماً إلى شكوى وسوء فهم.

متى دخلت على أوراقي مثلُ هذه التصورات؟ لا أعرف، كانت حياتي قفراً لا هامسة فيه من هامسات النفس عما أنا مقبل عليه مع الأيام... مشيتُها خُطىً كُتبتْ عليَّ، مثلما كُتبتْ على غيري. أذرعُ الأيام والليالي في قفار الصحراء بذراع الأمل والخيال، وكان ذراعاً قصيراً جداً وخيالاً أقصر... لا هو ولا آمالي يتجاوزون معدتي الجائعة. لكني سعيد بذكرياتي مع الأيام البعيدة، وإن أجاعتني وتقاصر بي الأمل في حدود المعدة والجسد والثوب. قضيت فترة من شبابي سعيداً بنسيم الصَّبا في أودية نجد.

وفي لحظة من لحظات الصدمات العنيفة، هبث عليّ، أيها التاريخ، رياحٌ غير رياحي، جاءت من آفاق لا أعرفها، فتساءلتُ ما الخبر؟ ماذا أشم وأستقبل؟ قالت لي الحياة: عصر جديد وعالم غير عالمك، قريباً يقول لك هذا العصر: «ودِّعْ هريرةَ إنّ الركبَ مُرتحلُ»، وقد قالها. وقفتُ يومها حائراً: ما مستقبلي مع هذا الذي دخل علينا دون استئذان، وقال لنا: اطووا خيامكم وسرِّحوا جِمالكم وودِّعوا الصحراء؟ عزَّ عليّ أن أكون

ببغاء تثرثر، لا لغة لي أعبّر بها عن نفسي. فرحتُ أفتش عمّن يعلّمني حروف الهجاء من هذا العصر فوجدته، والقصة أودعتها في سنوات عمري التي هي مدرستي، وهي جامعتي، وهي ناسي.

وهذا الذي أكتبه لك، أيها التاريخ، هو مما علّمتني إياه الحياة، فقد درّبتني على الخطو الذهني، خطوةً خطوةً، رحلت لي جَملاً من جِمال الذهن وقالت لي: أرقله ليلاً ونهاراً في الطبيعة، في مشاهد هذا الكون، في النجوم، في الغابرين من البشر. سألتها: أين أجد الغابرين؟ قالت لي: تجدهم في أوراق التاريخ. وها أنذا معك الآن حالم أنني أعمل شيئاً وأكتب شيئاً. ولا أظن أن هذا يكدّر مزاجك أو مزاج إنسان تجمعت فيه مكارم الأخلاق فضايقته أوراقُك بجار لئيم.

هدفي من هذه الأوراق ألاّ يجاور جنكيز خان الفضيلَ بن عياض، ولا يجاور هولاكو عمرَ بن عبد العزيز... وهكذا، لا شيء أكثر أذىً وأخبث رائحةً من أن يجاور الأشرارُ الأخيارَ. فقد تجدني، أيها التاريخ، في أكثر ما كتبته مذهولاً بعظمة هذا الكون مفتوناً به، ألقي تسابيحي وشكري للّه على أوراقي تعبُّداً وإجلالاً.

ماذا أحكي لك كيف كان تصوري، وتصور أمثالي عن الخالق وعن الكون وسعته؟؟ إنه تصور ساذج طفولي مضحك ومبكٍ. أحمد اللّه أن مدّ لي في العمر إلى حين رأيت حتى علماء المادة مذهولين من عظمة هذا الكون وسعته، حائرين متسائلين عن دقة نظامه وبُعده

اللامتناهي، أليس في هذا للناس الطيبين البسطاء من البشر، واعظ؟

ليت أتقياء المسلمين سُجَّد رُكَّع اليوم على صخور القمر! ليت علماء المسلمين سبقوا علماء الغرب إليه، ولكنها أقدار اللّه! وهي أقدار لا آخذها جبرية علينا، ولكننا غفلنا ولم نقم بأية محاولة تجاه الفضاء منذ مئات السنين. فيوم حاولَ عباس بن فرناس الطيران إلى الفضاء وأجرى التجربة مع حساباته وارتفع بها في الفضاء سقط في محاولاته وبموته لم تجد فكرته من يأخذها عنه من المسلمين ويطورها، فأخذها الغربيون.

ومع الأسف، نحن عالَمٌ يسرع إلينا اليأس مع الفشل، لذلك نامت لدينا، عرباً ومسلمين، أسرار عظيمة لم تجد من يوقظها فينا ويستجيب لنداء القرآن الكريم بالتفكُّر في خلق السَّموات والأرض... وتذكّر ما مع الإنسان من أسماء. صحيح أن أتقياء المسلمين وأخيارَهم عاشوا بتأملاتهم وقلوبهم مع مَشاهد هذا الكون، ولكن قد لا يكون هذا كل شيء... هذا جانب عظيم إيجابي، إلاّ أن الخطو في طريق الاكتشاف العلمي المادي شيء هامّ مع حكمة اللّه وتذكّر من يتذكّر «الأسماء» وينفُذ بسلطان اللّه.

أملي ألاّ يضيق صدر إنسان بهذا، مثلما ضاق صدري بكل ظاهرة علمية لم يقل عنها شيخي شيئاً في أيامي الأُوَل!!

لا أعرف، أيها التاريخ، وذكرياتي مع الصِّبا والشباب وخاطرات اليوم أغلبها هارب عن الورق مُستوحش منه، أتراني آمناً لو أنختها على ورقي وعَقَلتها عن الهروب؟ أسألك لتستطلع لي الطريق، هل عليها من لا يتحمل أن يُشاركه فيها أحد؟ إذا كان ذلك كذلك فسأتراجع، والأيام والليالي ماشياتٌ إلى الأمام تزيح الأذى عن طريق العقل، وقد أوسعث له حكمة اللَّه وسلطانه الطرقَ في الإنسان والكون والحياة العامة!!

35 ـ أكلُّ شيء آمن اليوم إلا الإنسان؟

اليومَ أخذتُ إجازة من عملي مع المسؤولية، وذهبتُ إلى عالم الذكريات، أيامَ كانت شجرتي مورقة وكان فيها ظل للمُتعَبين والمُتعَبات من أهل الحي الذاتي عندي، يومَ كانت تغرد على أفنانها حمائمُ الوُرَق. لا أعرف لماذا ذهبتُ عن عالم تركتُه ورائي بعيداً هو عالمُ رعاةِ الإبل ورعاةِ الأغنام، وارداتِ الغدير، وخائلاتِ السَّحاب وخائليها... تسائلني عصاي التي تتكئ عليها شيخوختي المتعَبة: لماذا هذه الرحلة بنا من قصرٍ بناه لك النفط، ووفَّر لك فيه وسائلَ العيش؟ ألك مع الذكريات وسَمَر الليل على حصباء الوادي أو سنام الرمال، ذكرى مع راعية غنم؟

غضبتْ على هذا السؤال أعوامي الطويلةُ ورفعتْ عصاها لتضرب بها الظنون في الهواء الطلق، منكرةً عليها مناجاة راعية الغنم. فجاءت أختُها، ومعها المأذون وقالت له: عاتبْ هذه الشيخوخة سيئةِ الظن وأبلغها عقدَ القران على أختِ راعية الغنم...

تجمعت من حولي ذكريات شابة ما عرفتْ القيود في الصحراء، ولا عرفت شيئاً اسمه ريبة أو سوء فهم. كل شيء آخذ مكانه من الوضوح وسلامة السلوك. جاءت إليّ أم راعية الغنم وأخذتني بيدي مع الذكرى إلى الخيمة وحجبتْها عن عيون الطفيليين ثم قالت: هذه فتاتُك، حافظ عليها كما تحافظ على حياتك. وقفتْ

أمامي ثم أشارت إلى ابنتها، راعية الغنم، وقالت لها: ها هو ذا من سهرتِ الليل من أجله، ومن عاتبناكِ على حبك له. حاولنا أن نُقلِّل من شأنه عندك، ونقول عنه إنه شاب أرضعته وربته القرية، ليس فيه شجاعة الصحراء ولا فتاها، ففارسُكِ في الحي في بيتِ عمكِ، فلم تُصغي إلينا.

في يومها البعيد أمسكتُ بيد من أسلمتها لي سُنَّة اللَّه وشريعته، وقلت لها: أهذا الذي تقوله أمك عنك وعني صحيح؟ خفضتْ طرفها عني ثم بكت، وحين جفَّ دمعها قالت: ما بقي عندي من دموع، دمعةٌ واحدة أبقيتُها في انتظار هذه اللحظة لأطلقها وأودَع بها الدموع وأيام الدموع. أنا سعيدة وفَرِحة فرحَ هذا القفر بهطول الغيث. ثم حاولت الصغيرة أن ترى أثر دموعها في نفسي، فقالت: وأنتَ ماذا عنك؟ من يخبرني عن دموعِكَ هل جادتْ بها نفسُكَ وأطلقتَها من أجلي؟ سكتُّ ولم أسرع إليها بالجواب، فامتقع لونها وقالت: أما من جواب عن تساؤلي؟! ضغطتْ على قلبي الصورة التي أخذت تلوّنها كبرياء المرأة أمام من أسلمت له هذه الكبرياء. فخِفْتُ غضَبَها، بل ونشوزَها. أخذت تتلفت كأنما تبحث عن مخرج من مكان شعرتْ فيه بالمهانة. أسرعتُ إليها بالجواب وقلت لها: الرجال لا يبكون، يا عزيزتي، خارج النفس، يتحملون أشدَّ المعاناة من أجلِ كبرياء نفوسهم. وإن بكوا يبكوا داخل نفوسهم، ويذرفوا الدمع غزيراً على غالٍ عليهم. نعم عزيزتي، بكيتُ

وساهرتُ النجم وفُتنت بالصحراء وعالم الصحراء من أجلك، وتمنيتُ أن أكون ابناً لجار أبيك، أسرح بأغنامه لأكون رفيقاً لكِ في رعي الغنم، أذود عن أغنامك خطر الذئاب، قالت: أين دموعك؟ قلت لها: في نحول جسمي ترين كل دمعة لم يرها أحد غيرك، لو كنتُ بكّاءً حين نزعت بي نفسي إليك لكنتُ معيباً فأنتِ لك صورة في نفسي لا تعرض الدموع على المرايا المبتذلة على الطريق العامة!!

لا أعرف، أيها التاريخ، كيف غلبتني هذه الذكرى فأدخلتُها أوراقي إليك أكثر من مرة، لا أدري ألأن ما في أوراقك على أغلبه علامات استفهام؟ فجاءت هذه الذكرى الخاصة لتقول لي ولك: إن أهم ما في تاريخ الإنسان هو الذي لم يُكتب ولم يقرأه أحدٌ بعد. فالإنسان عالم أو عوالم لم يرتَدها أحد ريادةً يعود منها رائدُ الفضاء الذاتي بشيء من أخبار الرحلة. نحن اليوم نقرأ أخبار روّاد الفضاء والبحار واليابسة، ولكن هل قرأنا شيئاً أدخل على نفوسنا السكينة والأمان وأسعدتنا الرحلة إليه؟ لا أظن أن هذا شيء حصل. لماذا؟ لأن الإنسان حتى الآن لم يُيسَّر له في أغلب البشر أن يُدرك المعنى العظيم للقول الكريم {وفي أنفسكم أفلا تبصرون}. فلو أبصرنا لرأينا العجب العجاب، ولسهل علينا الكدح، ولدنونا من الحق والحقيقة، أقول هذا ولا أعمم.

لا أعرف لو أن حاسباً أميناً فتح أوراقه واستحضر كل ما يتعامل به الإنسان اليوم مع الإنسان في هذه الحياة من خير وشر، ماذا سيُجَذوِلُ في أوراقه غير: الدم، الغضب، النميمة، الكذب، الفحش بعمومياته وخصوصياته، علانية تزيّف وتزوّر، وسريرة تخون المُثلَ والقِيمَ والرسلَ وبيت العبادة، وواعظ النفس كسول، ثقيلة جفونه، قليلاً ما يرى ما حوله.

ما كل «ماشيةٍ بالرحل شملال[19]». نَدخُل بين إبلنا، أعدادها مئات، نبحث عن شِملال واحدة، وكثيراً ما نجد غير إبل[20]، وكذا عالم البشر... لا أعرف أأخصف نعلي يومَ لم أجد لي راحلة من إبلي الذاتية وأمشي داخل نفسي، أبحث عن مطية واحدة، لا أريد إبلاً ولا رعاة إبل تخبط خبط عشواء، ترعى كل نبتٍ جميل وتدوسه بأجفافها، فعشوائيتها هي التي أفقدت الإنسان كثيراً من سعادته.

ليت المدارس النفسية تقف على الطريق العامة في هذه الأرض تلوِّن لنا عالم الذات، وتنظم حركته العشوائية في أغلب البشر ليستريح الإنسان من خليط الإبل، سقيمِها وسليمِها!!

ولا أعرف، أيها التاريخ، ألمَداخل النفس أو مَداخل الأحداث في نفسي، أو في ما حولي، سبيل توصلني إليها، لأكتب لك عما خفي وما لم يكتبه إليك أحد، فالحياة المعاصرة أربكت خطانا وتقاطعت فيها السُبُل.

ورجل مثلي لا يستطيع أن يخطو خطوة واحدة على طريقٍ غير آمنة، فالأمان يتراءى لي أننا افترقنا وإياه قبل المجيء إلى هنا. فما قرأناه في أوراقك أو نقرأه اليوم في أوراق العصر وأحداثه، يقول لنا: كل ما في هذا الكون العظيم آمن ومستقر إلاَّ الإنسان، تكتب لنا الأحداث في كل لحظة رسائلَ خوف وفجائع من الأرض والفضاء. ولا أمان إلاَّ لرجلين: عابد زاهد عرف أن الحياة ملهاة فطلَّقها، أو آخر غبي جاهل لا يدري شيئاً، قال عنه أبو الطيب:

تصفو الحياةُ لجاهلٍ أو غافلٍ
عمّا مضى فيها وما يتوقَّعُ
ولمن يُغالطُ في الحقائقِ نفسَه
ويسومُها طلب المُحال فتطمعُ

ومع الأسف متى وعيتُ هذه الفلسفة؟ وعيتُها بعد أن غطَّتني الأيام والليالي بأغطية ثقيلة من الجهل والغباء، وها أنذا أحاول أن أخفّف شيئاً مما على عقلي وتفكيري من هذه الأغطية التي نسجتها لي سنوات العمر من أوبار إبلي الذاتية التي ما رعت الربيع ولا قادها إليه قائد مدرَّب على ارتياد الخِصب!!

19. شملال: المطية الذلول القاطعة لأبعد الفيافي والدروب الوعرة.

20. هذا التشبيه أخذته من حديث شريف .

اليومَ، وقَدَمُ الأيام والليالي تقف بي على أبواب ثمانين عاماً، تقرعها قرعاً عنيفاً، تتثاقل بي عن النهوض قدماي، فأتلمّس عصاي من حولي لعلها تساعدني على النهوض لأرى مَنْ خارج الباب. ما عرفتُ زائراً لي في حياتي كهذا الذي يطرق باب بيتي طرقاً رهيباً. حائر أمام مدخل البيت أأفتحه له واحتمالات الخطر تقول لي: لا تفتخه وأحكِمْ إغلاق منافذه؟ تَرددتُ وترددتْ معي حواسي وظنوني ورحتُ أسائل نفسي: أإغلاقي لمنافذ البيت يؤمنني؟

حارت معي الأسئلة والأجوبة، وتبدّى الخوف والرعب حتى أغلق هو الآخر منافذ الإحساس والشعور فخفتُ أن يمحو حساباتي كلها من ورق الذات، فأصير إلى إنسان بلا حرية ولا إرادة، وأفقد حسابات الزمن في ساعة الحائط ومواقيته. ولا أدري ماذا عن إنسان سقطت حسابات الزمن من ذاكرته، كيف يستعيد ما فقده، ويبني حساباته من جديد؟ وهو شيخ تسنده عصاه؟ تابعتُ الأسئلة فإذا الذي تعطّل، وإذا الذي ضاع وخاف عندي حاشيةٌ ذاتية رديئة جبانة لا تقوى على مجابهة الخطر، بل تعطّل قيماً رفيعة في الإنسان، وتفسد عليه حياته وشجاعته، إذا استسلم لها ولم يكتشفها مبكّراً.

عند مدخل البيت الذاتي والصراع على أشده بين مَنْ خارجه ومَنْ بداخله، تهاوت هذه الحاشية الرديئة بسرعة أمام قيمٍ لا تُهزَم متى ما وعاها الإنسان في نفسه! وبتبدّيها وانتصار العقل وحساباته على الهزيمة والخوف فتحتْ الأبواب والنوافذ، فإذا أنا والعالم المعاصر وجهاً لوجه، فسألته ما أوقفك على بابي تطرقه؟ قال عرفت أنك تحاول أن تنادي تاريخك وتاريخ قومك من المفكرين والمثقفين والأدباء والعلماء في وجهي، وهذا شيء لو حصل لانكسر جناحي!! فقلت له: ألا ترى في ذلك مدخلاً بك إلى عالَم آخر أوسع من عالَمك الذي أسكرك وأضاعك؟ فعالَم القِيم والمُثل الإنسانية هو ما تفتقر إليه، فأنت عالَم بلا روح، بلا أمل في حياة أخرى. نظر إليَّ في سخرية وقال: شيخ مخرّف، اكتب ما شاء لك أن تكتب، ونادِ بأعلى الصوت فلن يسمعك أحد، ولن تسترجع غائباً راح بعيداً ولن يعود إلى أهله، فأهله لا وجود لهم في عالَم العصر!!

أغلقتُ منافذ بيتي دونه، وعدت إلى فراشي لعلّ غفوة تأتي إليّ ومعها حلم جميل، فقد تطاول عليّ الليل فصار إلى سحب داكنة من الهموم والمعاناة والذكريات. فردّدتْ في ذهني واحدةٌ من الذكريات قولَ رجل قَبلي تطاول ليلُهُ فقال:

ألا أيها الليلُ الطويلُ ألا انجلِ

بِصبْحٍ، وما الإصباحُ منك بأمثلِ

ولكي أغفل عن واقع أليم وليل طويل، مددتُ يدي إليك، أيها التاريخ، وقلت لكَ: تعال نتسامز، ولأنك شيخ مسنّ مثقل بالهموم والمتاعب ناديتَ: أن تعال إليّ أنت وقل لي ما تشاء!! فاستجبتُ لك...

ولا أدري، والدنيا من حولي وحولكِ غير دنيانا، أأفتح بين يديك شيئاً من أوراق العصر لنقرأ ما فيها، أم أن هذا شيء قد يزعجك؟ لا أتصور ذلك ولا أظنه فيك، فأنت حمّال أثقال وهموم، حملتَ الأحمق والغضوب، حملتَ التقي والفاسق، حملتَ الماضي كله على أكتافك. وإذا كانت الأيام تقف بك اليوم على أبواب عصر الطيران والنزوع بالإنسان إلى ريادة الكواكب والنجوم، فأملي ألاّ ترتبك خطاك وتقف بك على أقدام حائرة. تَجاوَزِ الحيرة ولا تختلط عليك الصور التي تعرضها اليوم مرايا العصر من فوق صخور الفضاء!!

ولا أعرف، أيها التاريخ، وأنا معك الآن، ومع هذه الأحاسيس، أين الطريقُ التي ألتقي وإياك عليها؟ فالرحلة طويلة، وركائبي الذهنية هزيلة لا تحتمل السير على وعورة الطريق الشاقة. أنا وأنت نتسكع على التراب، الشيخوخة قيد علينا، والعالَم الشاب قَدَمه طليقة من القيود، قفزاته بعيدة، فكيف لي ولك أن نجازف وندخل معركة الصراع الرهيب فيما بين الأرض وساكنات الخيام من الأفكار، اللاتي يغازلن البعيد، ويدنين المطايا للرحيل إليه اليوم، وإن كان نجماً بعيداً غارقاً في الظلام؟

أهمُّ بأمر الحزمِ لو أستطيعُه
وقَد حيلَ بين العيرِ والنَّزَوانِ!

قالها العربي القديم، وأقولها اليوم، ومركبةُ الفضاء تصعد أمامي ذاهبة إلى قفار فضائية لا يصلُ إليها خيالي أو تفكيري. إنه شيء يفجّر كل ساكن في النفس، ويكسر جناح كل طائر يطير بجناح العقل فينا أو جناح العُقاب في فضاء اللّه الواسع.

ما أخشاه اليوم، أيها التاريخ، وأخافُه على أكرم ما معك لنا، شيء يُفجِّر من محجر العقل والوجدان أسخى الدموع وأقسى الاحتجاج. نعم، بالأمس قابلتُ عالِم الفضاء العربي (فاروق الباز) في مكتبي، وتحولتُ إلى تلميذ بين يديه أسائله: ما الفضاء؟ ما الإنسان؟ ما القمر؟ ماذا بعد نزول الإنسان عليه؟ ماذا قال أول رجل هبط على صخوره؟ تابعتُ الأسئلة عليه: أبقي لنا من أمل في المنافسة لحماية أمننا واستقرارنا وحريتنا ودِيننا، مِنْ هذا الذي يجري اليوم في العالَم؟

شعر العالِم الكبير بألمي، فظهرتْ عليه أعراض الشفقة عليّ، فقال لي: لا تيأس، فنحن أمة، ميلادنا مع المستقبل عسير، مخاضه يحتاج إلى زمنٍ، وإلى احتمال شدة المخاض. فنحن لم نكن طفيليين على هذه الحضارة المعاصرة. هناك على صخور القمر، عندما أراد أرباب هذه الحضارة أن يسجّلوا أسماء علمائهم على الصخور، احتج عليهم علماؤنا في التاريخ، فحملتْ احتجاجَهم إلى الجهة المسؤولة عن ذلك. وبعد دراسة

عميقة أقرّوا بفضل هؤلاء العلماء المسلمين على حضارتهم، وأفسحوا لنا الطريق فسجلناهم على صخور القمر بالعشرات من العلماء.

سألتُ هذا العالِم الجليل: ألا يمكن أن يدخلوا جامعاتنا اليوم ليكون لنا منهم منافسون في هذا العصر الذي يُريد أن يغرِّبنا ويُلغينا من حساباته؟ قال: كل شيء ممكن. سألت عالِمنا فاروق: ماذا قال العلماء حين حطُّوا أقدامَهم على تُراب القمر، في مشاهد هذا الكون الذي ربما أذهلهم؟ قال: عادوا وقد تغيّر فيهم كل شيء، هم اليوم يطرحون أسئلتهم وبحوثهم عن هذا الإبداع العظيم وخالقه.

بعدها قال لي عالِم الفضاء: أشعر أنك مفتون بعلوم الفضاء. فقلت له: نعم، أنا مفتون بليلى النجوم، أقف أمام مراياها في هذا الكون، لعلّي أهيم بها فأرحل إلى خيامها، فقد تعبتُ من التسكع على التراب فاقداً لشيء كبير، أريد أن أعرف، أن أعلم، أن أرى، ولكن كثافة الجهل وعدوانيته على العلم والمعرفة اعتقلتاني طويلاً في منحنى الوادي المقفر من الغيث. كلما دفعتُ بقطعاني الذاتية في قفاره لترعى من نبت هذا الكون البديع الذي زرعته فيه حكمةُ اللّه قال لي الجهل، وقالت لي سائمة الذات: أعاشق يابن الثمانين؟ شيخ يتصابى على أوراقه يغازل ليلى وبثينة، وهما عازفتان عنه وعن غزله؟ فمَضارب خيام عشائر النجوم في هذا الفضاء، لا يلحق بها عقلٌ نادتْه حكمة اللّه طويلاً، وَدَعَتْهُ إلى

التفكُّر والرحيل بسلطان اللَّه، فنام ورقد على كثيب من الجهل، رقَّت له حواشيه، فطال نومُه عليه من المحيط إلى الخليج!!

37 ـ ما بين هواجس الجامعة وهواجس الشيخ!

ما حملث به الليالي والأيام، أيها التاريخ، ولدَته في هذا العصر، ولا أدري كيف أصف لكَ حوامله ومواليده؟ فما يخيفني عليكَ وعلى مكارم الأخلاق التي معك هو دنيا جديدة لم يعرفها الإنسان، ولم يتمخَّض عنها رحم الحياة إلاَّ في هذا العصر. تضنُّ عليَ المعرفة أن تتمدد على أوراقي مرتاحاً عضدُها من عوز الليالي والأيام، فالعوز إلى المعرفة هو الجوع والظمأ والعُري، ولا أظن أن أرضي الذاتية أو أرض غيري بور لا تُنبت شجرة واحدة، فأرض الإنسان مخصبة كلها بما هو محسوس ومرئي، ولكن الكادحين والمثيرين لرياحهم الفكرية من بحور النفس سُحُباً ما أقلهم!! وهذه هي المشكلة بين راقد وسائرٍ وراء الهدف!

لا تلمني، أيها التاريخ، وتُفجعني، فقد فَجَعَتْنِي إلى المعرفة الأحداثُ في عصر ريادة الفضاء! فقد كنتُ وكانت خيمتي وكوخي والصحراء في قلب نجد هم دنياي، وهم العالم والمعرفة، إلى أن فاجأني هذا العصر ووقف على باب خيمتي وكوخي وقال لي: أفسِح لي الطريق فأنا آتٍ من بعيد، مسافر بي العقلُ إليك، وإلى رمالك وأرضك ومياهك وبحارك وسمائك، أزحزحُ عقبات الطريق إلى ما أنت راقد عليه. آمرك أن تركب بعيرك الذي يجترُّ بجانب خيمتك، اركبه في رحلة التأمل،

فالعلم قد أذن اللّه له أن يركب جِمالاً من الوعي إلى ما في باطن الأرض والفضاء والبحار!!

أذهلني ذلك، فأخذتُ عصاي، وأيقظتُ أمَّ أطفالي وقلت لها: أزَفَّ الرحيل، فقالت: إلى أين؟ قلتُ إلى المجهول إلى حيث لا أدري شيئاً. فقالت: وذكرياتُنا ومنازل العشيرة هل نودّعها فلا رجعة إليها؟ قلت لها: «دعي المقاديرَ تجري في أعنّتها»! بكت ثم قالت: أخاف المجهولَ، أخاف على الأصيل، أخاف على القِيَم والمُثل العليا، قلتُ لها: يا أم قيس، هذه هي الحياة رحَالة بالإنسان من المهد إلى اللحد، ليس له خِيار مع القوي!! تنهّدت ثم قال: أتعرف هذا الذي أمرنا بالرحيل؟ قلت: لا تفزعي واقبلي بالرحلة، فقد يكون الغدُ أحسنَ من اليوم! فلملمي متاعَك في حصيرٍ ولا تتساءلي عن آتٍ إلينا لا نعرفه ولا نعرف قبيلتَه!! فالأيام مثلما حملته إلينا ستحملُ معه أخبارَه ومسلكَه في الحياة!

في لحظة الصمت رفع المؤذن صوتَه بـ «اللّه أكبر» فقالت: أسيرحلُ معنا هذا المؤذن؟ قلت لها: القِيَمُ لا ترحل، ولا تكونُ أطلالاً ولا رسوماً، هي خالدة، فقالت: والأطلالُ والرسوم والذكرياتُ ماذا عنها؟ قلت لها: قد جادَ عليها شيخ المعرَّة بالرثاء!!

فأذنَتْ أمُّ قيس جَملها وحطت عليه الرَّحل ثم ركبته، فمشت من خلفها صور جميلة من الذكريات لئزلاء الصحراء تُودعها وتقول لها: أبقِيَ عندك دموع فاذرفيها على هذا التراب؟ ألديكِ حنين وأشواق إلى ذكرياتك، مع

الغدير والسحب والخُزامى ومناجاة القمر والنجوم، فأسلميها وديعةً لك عند قيس وليلى، وجميل وبثينة، لعلكِ تذكرينها أو تذكّرين بها حفيداتك، فيأتين إليها في يوم من الأيام، ومعهنّ التساؤلات عن ماضي هذه الصحراء وأهلها... فما بقي لها مع الأيام وعندها غير الذكريات. وما حملته الليالي والأيام وولدته في هذا العصر لن يتراجع إلى الخلف... كل شيء مدلج في الأرض وفي الفضاء إلى الأمام، بل إلى التداعي في فم القبر!

ولا أدري، والقادحون بزناد فكرهم الحجرَ النائم على صعيد الأرض والفضاء. قد حاوروا بسلطان اللّه خُرساً من الأسرار فأنطقوها، أهم اليوم راحوا عنا بعيداً، ولا أمل في اللحاق بهم؟؟

لا تلُفني، أيها التاريخ، أمام حفيدي وتُفجغني بذلك، فقد فجعَتني إلى المعرفة أحداثُ العصر! غريب بغربة أيامي ولياليّ الأوَل عني، ليتني وبعيري وأغنامي ونخلات أبي وجدي لم يفرّق بيننا عصرُ النفط!!

يتراءى لي اليوم أن شيخ القبيلة حزين، مثلي، على فراقه لخيمته وجَمَله، وإن بنى له النفط قصري كسرى وقيصر. رأيته شيخاً حائراً يُحاول أن يُخاطب أهلَه وأبناء قومه بلغة العصر وفلسفته، فأشفقتُ عليه، وقدّرت أنه أكثر سعادةً يوم كان يغني على ظهر جَمله، ويحدو على سرج حصانه، ويستقبل الرعاة بفطرته، يُسائلهم عن الفلاة والربيع ويستطلع أخبارهم، ويحيّيهم

واحداً واحداً. كان ذلك في يوم بعيد، وهو اليوم يستقبل أبناء الجامعات والمدارس على شطآن مياه الخليج، ويتحدث معهم حديث الأب إلى أبنائه، وهم ينظرون إليه نظرات قد تتساءل: كيف كان هذا وكانت غِيَر الأيام والليالي على شطآنه تخلط الأرباحَ بالخسائر، وتخلط الأتراحَ بالأفراح؟

لا أعمّي عليك، أيها التاريخ، فكلّنا ذلك الإنسان البسيط الذي نزل من فوق ظهر جمله، وخرج من خيمته، وتركها في العراء، وصار إلى ما صار إليه هذا الشيخ الجليل!

فيوم أستقبل أولادي آيبين من جامعاتهم وأسألهم: ماذا تدرسون؟ يتضاحكون، ثم يردون السؤال إليّ: أتعرف الفيزياء والكيمياء والجبر والميكانيك والجغرافيا والحاسب الآلي؟ أُصابُ بالذهول، وتتداعى على خاطري صورٌ ليس لها عندي مرايا أستعرضها عليها، غير مرايا: لا أعرف، لا أدري، لا أفهم... لكم عصركم ولي ذكرياتي مع عصري الذي مضى.

وأنت، أيها التاريخ، ماذا عنك؟ أتستطيع أن تقول لهذا العصر: أفهمُك، أعلمُك، لا أجهلك؟ أم أنك شيخٌ جليل ركب ظهر الزمن ومشى إلى أن وقف على أبواب هذا العصر حائراً مثلنا؟ والحيرةُ لا تُفرغنا، إن شاء اللّه، من مكارم الأخلاق والقِيم والمُثُل العليا التي معك.

نعم، لا أدري، أأنا أخطئ في حقك إذا تصورتُك في حُكم الزمان والمكان التاريخي كشيخِنا الجليل الجالس

في تواضع بين أبناء الجامعة، يجاذبُهم ويجاذبونه أطرافَ الحديث والنظرات؟

الشيخُ جامِعَتُهُ الحياة، وتجربتُه فيها مع الجَمل والخيمة وساكني الصحراء، من الماضي، وأبناؤه الجالسون أمامَه من أبناء العصر. رأيته إنساناً بسيطاً، أحببتُ بساطته وأشفقتُ عليه، وهو يُحاول أن يتدرب على لغة العصر في حديثه لأبنائه. تتعقد الجُمل والألفاظ والأهداف في اللقاء بينهم، فيُسرع إليه على عَجَلٍ أحدُ الأبناء ليفسّر الهدف من الزيارة، فتتباطأ الصور في طريقها إلى الشيخ، تتعثّر دونه، ثم ينهض بها شاب آخر إلى أن تستقر في ذهنِ الشيخ الجليل.

وهكذا رأيت طالبَ النفط والجامعة وابنَ العصر مع الشيخ، يعانون مسافة الخُلف الطويل بينهم. أسفارُ الشيخ وذكرياتُه وتجربتُه ورؤيتُه من الماضي، وأسفارُ طالب الجامعة لغتُها آتية من عصره.

ولا أدري، وهواجس الشيخ، أو هواجس ابنه الطالب الجالس أمامه في أدب جمٍّ، أتقول لهما هذه الهواجس: ما هذا الذي يجري بين الماضي والحاضر؟ بين الجامعة والخيمة والصحراء والجمل وراكبه؟ لا أعرف ماذا في ذهن ابنه الطالب من تصورات ذاهبة به إلى أبعد ما يكون البعد من ظنون وتساؤلات. هو مُرسَل من الجامعة إلى أبيه الشيخ ليحمل إليه ولاءها له وأدبها معه في أدب طالبها الذي لا أظنه عاد من تلك الجلسة التاريخية، مع شيخه الجليل، مُفلساً من ذكرى جميلة قد

يُدخلها في أوراقه ويحكيها للتاريخ، وماذا سيحكي؟ هذا الذي تحيطه الشكوك وتخافه أمانة الكلمة.

ولا أدري، ولحظة اللقاء بين ابن الجامعة وسيده الشيخ على شطآن الخليج، جاءت صدفة وعابرة سبيل، أم أن مداخل الجامعة ومخارجها أدخلت في حسابها عرضَ ملامح النقيضين بين شيء من الماضي ومن الحاضر؟، لتقول لنا الحياةُ على لسان الشيخ: كلكم هذا الشيخ الجليل؟ فالجامعة وما فيها غريبة عنكم وأنتم غرباء عنها.

لو سألني طالب مثلما سأل الشيخ الجليل وجادلني، لعاد مني دون أن يفهمني أو أفهمه، لأمر بسيط بساطةَ هذا الشيخ الكبير، هو أني قديم قِدَم بعيري وحصاني وخيمتي وصحرائي. لو أخذ بيدي ذلك الذي قضى وقتاً وهو يُحاول أن يوصل هدفه إلى ذهن الشيخ، أقول لو أخذ بيدي إلى الجامعة، وأوقفني أمام أولادي فيها وسألوني: لماذا جئتَ إلينا؟ لقلت لهم: جئتُ، ومعي أخبار الأيام القريبة والبعيدة. وإذا سألوني: ما أخبارك؟ أقول لهم: في يوم بعيد، ضرب الإسكندر المقدوني خيامه في هذا المكان الذي قامت عليه جامعتكم، وحين رحل أخذ شيخُ القبيلة مكانه، وبقي يُصارع الفناء آلاف السنين، إلى أن جاء هذا العصر وقال له: ارحل، قوِّضْ خيامك!! سنبني لك قصراً وقصوراً، سنقيم في مضارب خيامك جامعة. سألهم: ما الجامعة؟ قالوا: هي

من خيام العصر ومن فلسفته. سألهم: وأنا إلى أين أذهب؟ قالوا: إلى مكانٍ تستريح فيه من التعب!!

لا أعرف، أيها التاريخ، لماذا ألقت عليّ الخاطرات مثل هذه الألفاظ؟ ما الذي أتى بها؟ وما الذي أملاها على أوراقي؟ لا أحد غير المشهد الذي دار بين شيخنا الجليل وبين طلاب الجامعة. ولا أدري، والحياة تملي على التاريخ أدواراً بليغة فيها العبر لمن يعتبر، أتُراها هي التي جمعت بين الشيخ الجليل، الماضي، وبين ابن الجامعة على شاشة التلفاز على مشهد من العالَم؟

مثلُ هذه الحالات لا أظن أنها تضيع في الفضاء دون أن يسجلها في ذاكرته أو مذكراته، ويقيم منها حواراً في أوراقه، وما أكثر ما سيدخل هذه الأوراق، في الوطن العربي!

ولا أدري، وقد رأيتُ البساطة والوداعة والتواضع عند هذا الشيخ الجليل، ألي أن أتساءل عن الآخرين من المحيط إلى الخليج، وأضع على أوراقي تساؤلات عنهم وعنه؟ الشيخ معلن عن نفسه، صادق مع هذه النفس، يراه المرء، فيرى فيه ملامح الفطرة التي لم تزيّفها حضارة العصر، فهو رائد أهله، أظنه ما كَذَبهم ولا غدر بهم أو خانهم في شيء. إنها الفطرة السليمة ومدرسة الحياة أبقت له هذه الصورة الجميلة.

شيء محيِّر ومثير للتساؤلات: ماذا لو جاء مؤرخ العصر والأحداث اليوم، وأخذ هذا الشيخ من شواطئ الخليج إلى كثير من العواصم العربية، ونادى شعوب

هذه العواصم وسألهم: أهذا الشيخ الجليل أم صاحبكم؟؟ ماذا لو قال: يد الشيخ طاهرة من دماء أهله الآمنين في ظل خيمته السعيدين به، لم يُخِفْ ولم يُشرِّذ، فهل أنتم كذلك؟ كيف يكون الجواب؟؟

أيها التاريخ

ما لي وللأوراق والقلم، أيها التاريخ؟ ما لي وللعالم الذي معك؟ لقد ضاق بي فتر عن مسير في عالم أتى إلينا من مجاهل الفضاء. أحاول أن أسحب الآهات من أقصى الطريق المُضنية آهةً آهةً لأعبّر عن عالم تركتُه ورائي وعشتُه وعايشه قومي مكارمَ أخلاق. معي الآن من يقول لي:

تمتَّع من شميمِ عرارِ نجدِ
فما بعد العشية من عرارِ

لا أدري، أأنا أطيق الوداع؟ وإذا ودَعتُ فإلى أين أذهب عن عالمي الجميل، أيها التاريخ؟ ليتني مع شجرة العرار والخزامى ونفل الروض، أرعى إبلي وأغنامَ ذهني!

ذكريات أسوقها الآن إلى قفار الورق بدلاً من قفار الصحراء، فكل شيء معي وعندي وحولي تبدّل مُدلجاً في سُراه خارج خيمتي. فسفينة الحياة اليوم عائمة على بحور هائجة بالغضب، مجادلة كلَّ ساكن بلُغة لا نفهمها. أقول هذا، وأنا لا أعرف أأقوى على الأخذ بفلسفة من قال:

عوى الذئبُ فاستأنستُ بالذئبِ إذ عوى
وصوَّتَ إنسانٌ فكِدتُ أطيرُ

وقلمي لم يبقَ فيه نَفَس يرافقك في رحلة الجدل واحتمالاته معك، أيها التاريخ. إلاّ أنه يعزّ عليّ أن نفترق، لكني مطمئن عليك لأن أهلك وأبناء قومك

يتدافعون إلى الجامعات في الوطن العربي والإسلامي بالآلاف، سيحملون أقلامهم ليدافعوا عنك ويزحزحوا عن كاهلك كلَّ رديء حمَّلَتْكَ إياه الأيام. فالتاريخ تاريخهم، هو رسالة آبائهم إليهم. سيقولون لهذا العصر: سنلتقي بك بلغة العلم، لنقول لك: هذه حضارتنا، وهذه قِيَمُنا، وتلك رسالتنا الإنسانية. فجامعاتنا في التاريخ هي التي علّمت شبابَكَ، وهي التي استقبلَتْهم، فلا تُنكروا عليّ واقعاً هو لي في قرطبة والحمراء وطليطلة وإشبيلية. أنا لا أُماري ولا أجادل، ولكنْ لي معكم نَسَبُ العلمِ ونَفَسُه، فحيُّوني أُحَيِّكُم. أنا لستُ سفيهاً من سفهاء الجهل. أنا عربي مسلم، رسالتي قالت لكل الجبّارين: «متى استعبدتُم الناس وقد ولدتهم أمهاتُهم أحراراً؟!». وقالت للإنسان البسيط على لسان نبي الرحمة ((ص)) «هوِّنْ عليك! إنما أنا ابن امرأة تأكل القديد»، وقالت أيضاً على لسانه للفقراء: «أهلاً بمن أوصاني بهم ربي»، وفرش لهم رداءه الكريم. ورسالةٌ إنسانية شرّعت وأمّنت الخائف وصانت حقوق الحيوان والنبات، ليست رسالةً متطرفة ولا جاهلة، فالتطرف هو عدوها، وقد أتت لتهذيب الإنسان وتدريبه على الخير.

هذا هو التاريخ الكريم والجميل الذي معنا، وهذا ما سيهزم التطرف والسَّفَه أينما كانا.

هي رسالة تقول للإنسان {ادعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن}، وتقول {فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم}.

وهكذا، وجدتُ نفسي على آخر نَفَس مع هذه الأوراق فرقّت لها مشاعري فودّعتُها بشيءٍ من مكارم أخلاق الرسالة الإنسانية وهي الإسلام، لعله يكون لي منها أخٌ مُسامح يقرأ أوراقي هذه فيعذرني عن الخطأ غير المتعمَّد، خصوصاً أني لست من مُجادلي الورق، لأني وثقافتي من الخيمة ومن الطبيعة ومن الفطرة. والسبيل التي اخترتُها لهذه الأوراق هي الرحلة التاريخية وما على جملها من جدلٍ ضجيجه أتى إلينا في عصر يقول: العالم عالمي، ويكتب تاريخه من فوق صخور القمر. فاستدعيتُ كلَّ قلم شريف يفتحُ ورقه ليدافع عن الخير والحق والعدل والأخلاق والثوابت التي أقامت حضارة إسلامية عظمى، بحيث لا يكدّس التهم الباطلة عليها عصرٌ مُغالٍ في نفسه ومُسرفٌ في تصوراته عن هذه النفس.

والعلمُ علمُ اللّه والإذنُ إذنُه.

سلامٌ عليك أيها التاريخ!

حول الكتاب

نبذة عن الكتاب

يطل علينا التاريخ، في ثنايا هذا الكتاب، بصورة شيخ جليل، يستنطقه الكاتب، رجلاً لرجل، ويعاتبه، ويستعمل مبضعه فيه لتصحيح كثير من التزوير والمغالطات التي شابت أحداثه.

فالتويجري، وهو من الذين عايشوا تاريخ السعودي الحديث، وكان شاهداً على ميلاده، يبرز لنا في هذا الكتاب الوجه الجميل والعظيم لتاريخ العرب والمسلمين، ويخرج به إلى ضوء المكاشفة، وتحليل ما في التاريخ من نكسات أصابت الدولة العربية الإسلامية.

يبحث هذا الكتاب في أسباب ما أصاب عالمنا العربي من ويلات ومصائب، ويرد تلك الفجائع إلى أسبابها ومسبّبيها، وينفي عن تاريخنا ما لم يكن صنيع ماضينا، وما هو مزوّر وملفق.

كذلك يبحث عن الحقيقة، ويسعى إليها. ويأتي رداً على من يحاول تزوير التاريخ، وكتابته كصدى لمزاجه الخاص، ويدحض «شبهة» أن تكون الحضارة الإسلامية راعية للإرهاب!

قيل في الكتاب

«ولعل الكاتب يصيب أهدافه في مكاشفاته حين يقيم الموقف الإنساني معياراً والهوية الحضارية منطلقاً من غير أن يفقد التواصل». جريدة النهار

نبذة عن المؤلف

عبد العزيز بن عبد المحسن التويجري ولد في حوطة سدير سنة 1336هـ. ومن ثم انتقل إلى المجمعة وعمره ست سنوات. بدأ عمله متطوعاً في صفوف جيش الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود.

كتب آخرى للمؤلف

«أبا العلاء»، «حاطب ليل ضجر»، «في أثر المتنبي بين اليمامة والدهناء»، «ركب أدلج في ليل طال صباحه».